

روایات عبر



مَارِغْرِیث رُوم

هسارۃ!



روايات عبر

HARLEQUIN — "ABIR" — No. 31

هاربة!

رحلة العذاب عادة تبدأ بخطوة صغيرة تدفع الانسان الى متاهات مجهولة. مارييل بدأت رحلتها من بلدها الضبابي بريطانيا بجواز سفر صديقتها شارون للقاء خالتها صوفي في بولونيا فأنتهت في عربة زعيم الفجر المدعو روم بورو الذي خلصها من قبضة الشرطة. ولم يستطع انقاذها من شعورها بالذلة حين دفع ثمنها بضع قطع ذهبية ليتزوجها حسب تقاليد قبيلته.

ترى هل تستطيع مارييل الهروب من روم بورو كما هربت بجواز سفر مزور؟ ام ان الوقوع في حب هذا الفجري افضل من وقوفها وراء قضبان السجن؟

١ - لقاء الجذور

توقفت ماريبل على الرصيف الأوسط للشارع تعزها عن الجانب الآخر حركة المرور المسرعة وأبواق السيارات الصاخبة، ونظرت إلى المباني المحيطة بها: إذاً هذه هي وارسوا المدينة التي وصلت إليها بعد مشاق ومخاطر عديدة، أعصابها كانت لا تزال تهتز كلما أطلقت لنفسها عنان التفكير في الاحتمالات التي يمكن حدوثها.

كانت الخدعة أول الأمر تبدو بسيطة، لا ضرر منها. حين عثرت شارون، زميلتها في السكن، وأعز صديقة لها، على وظيفة مع فريق من الراقصات يعمل في النوادي الليلية في جميع أنحاء أوروبا. وصلت ماريبل متأخرة على موعد المقابلة المخصصة لاختيار الراقصات. ورغم أعذارها لم تنجح في تغيير الواقع، وهو أن جميع الأماكن الخالية في الفرقة شغلت، وأن الإدارة لم تعد تهتم بمزيد من المقابلات رغم تشوّق المتقدمات لزيارة أوروبا. وقبل مضي ٢٤ ساعة على موعد سفرها، انزلقت شارون في الشارع وسقطت، مما تسبب بكسر عدة عظام في قدمها، وعندما زارتها ماريبل في المستشفى نظرت إليها باهتامة ضعيفة وهي تحمل لها حقيبة بما ستحتاج إليه في المدة التي علمت أنها ستطول في المستشفى.

وتتهددت شارون وقد تغلب القلق على ألامها وهي تقول:

«من الذي سيحلّ محلي في فترة وجيزة كهذه؟»

قطعتانها ماريبل وهي تقول:

«سيعثرون على غيبك، فكثيراً ما تقع الحوادث للراقصات أكثر من

سواهم هكذا يحيل إلى. فلهذا يا عزيزي، فلا بد أن لديهم أساءة احتياطية في سجلاتهم.

وحاولت أن تصرف ذهن شارون عن هذه المشكلة بتغيير الموضوع إلا أن جين صديقتها ظل مقطباً من القلق بالرغم من ردها على استفسار مارييل عن كيفية وقوع الحادث.

وفجأة قالت شارون بطريقة تلقائية وهي تقاطع كلام مارييل - التي كانت تستكر إهمال الناس بتركهم الشمع يتسرب من سياراتهم على الأرض، معرضين بذلك المشاة للخطر، مما أدى إلى انزلاقها.

«لماذا لا تحلين عملي؟»

وفتحت مارييل فمها من الدهشة. ولكن الصمت الذي تبع ذلك كان مليئاً بالأسئلة. وأخيراً قتمت قائلة:

«كيف أستطيع أن أفعل ذلك؟»

كانت عيناهما تتأان عن حاجتها إلى أن يطمئنها أحد ويرشدها إلى طريقة تحكها من الوصول إلى ما تصبو إليه.

فجلست شارون فجأة وقد نسيت ضرورة الحذر من الحركة نظراً لحالة قدمها وقالت:

«تستطيعين بكل سهولة، إن السيدة غلوري المسؤولة عن الفرقة تعرفنا جيداً، لكنك تعرفين أيضاً كيف تنسى الأسماء والأشخاص بسرعة. فكثيراً ما خلطت بيننا عندما عملنا معها في الماضي، ولن تكون مشكلة بالنسبة لينا إذا خدعنا تلك السيدة العجوزة.

فأوصأت مارييل برأسها للدلالة على موافقتها على فكرة صديقتها، إلا أن تعبير وجهها حمل معنى التردد وهي تعترض على

أرجاء:

«لكن هناك أنظوني جيمس، سيخبرني ويفهم أنني غريبة عن الفرقة». استخفت شارون بتعليق صديقتها وقالت:

«أنظوني جيمس! إن كل اهتمامه منصب على سيقان الرافعات، فبرغم أنه قام بمهمة الاختبار وله الرأي الأخير في الاختيار لكنه لا يعرف الوجهه أبداً».

فضحكت الفتاتان من هذا الوصف الذي ينطبق على ذلك الرجل المعروف بشغفه بالسيقان الطويلة. واستمرت الفتاتان في مزاحهما بحيث لم يكن في وسعها التفكير السليم أو الجاد، فكثيراً ما سمعنا جيمس يقول إن اللاتي قبلهن الفرقة هن اللاتي الانكليزيات الشراروات ذوات السيقان الطويلة.

ولجأة تلاشي الضحك وتلاشي الأمل المتصاعد عندما تذكرت مارييل أن ليس عندها جواز سفر. وأخذت الفتاتان تفكران بقلق في هذه المشكلة الجديدة. وبدأ الأمر وكأنه بسيط مجرد جواز سفر، يمكن الحصول عليه بسهولة. لكن لم يكن هناك متسع من الوقت. وقلقل الفتاتين عناد وتبرمنا من الفئود الروتينية الرسمية وقد عبرت شارون عن ذلك قائلة لصديقتها:

«تياً للفئود! استخدمني جواز سفرني فنحن متشابهتان بحيث يمكننا استعمال نفس الصورة ويمكن التأثير على السيدة غلوري لتفديك على أنك شارون شين. هيا افعلي هذا وأراهنك على نجاح الفكرة. طالما كنت تسمين زيارة خالتك في وارسو».

وهكذا وجدت مارييل نفسها في الدولة التي علمتها أمها أن تحبها عن طريق وصفها لها، فكانت كطفلة تتخيل نفسها وهي تصحب

والدتها في زيارتها لمنزل الأسرة الكبير في الميدان الذي قضت فيه طفولة سعيدة مع والدتها وأختها الصغرى صوفي، التي كانت والدتها تؤكد بأنها تنصف بالحبيوية الجامحة. وبينما كانت مارييل تتجول في الشارع بدون أن تلفت للمرور إطلاقاً، كانت تذكر ملامح أمها الحبيبة، فحتى تلك اللحظة، أي بعد انقضاء ستة أشهر على وفاتها، لم تتقبل مارييل فكرة عدم سماع ذلك الصوت العذب الهادي، وعدم إمكانها تبادل الذكريات الحلوة والمرّة معها عن تلك المدينة التي أحببتها، وعن والد مارييل الذي أحبه الأم، منذ أول لقاء لها. وما زاد من ارتباطها به وقوم الحرب وكان تشارلز مور قد درس الحقوق في جامعة انكلترا وأتاحت له المنحة الدراسية التي حصل عليها أن يتابع دراسته في أوروبا. ولما كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالنظام القانوني في بولندا، قرر أن يقضي كل المدة المحددة لبعثته الدراسية في وارسو. ويجرد وصوله إليها تعرّف على إيفا، الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجته، وفي غضون ستة أشهر من السعادة والهناء نما حبها وازدهر في المدينة التي كانت تردد ألحان شوبان العاطفية معتبرة موسيقاه نبضاً للشاعرية الهادئة في ألحان أعظم أبنائها. وفجأة وقعت بولندا فريسة للغزاة وحاول تشارلز أن يهون من مخاوف إيفا التي شعرت بعدم قدرتها على التكيف في وطن جديد واحتاجها للفرار أسرتها. ولما كان ولاؤه مرتبطاً بوطنه وولاؤه مرتبطاً به هو، أصرّ على أن تبقى بجواره لتوفر له الراحة والحسب، اللازمين للرجل الذي يخوض غمار الحرب، وبطريقة لا تعرفها مارييل، فر الزوجان إلى انكلترا حيث انضم تشارلز إلى السلاح الجوي في وطنه. إلا أن زواجهما السعيد لم يطل به الأمد فأنتهى بعد

سنة واحدة ب وفاة الزوج في العمليات الحربية تاركاً وراءه أرملة شابة في بلد غريب ومعها طفلة رضيعة.

وفجأة صحت مارييل من تأملاتها وذكرياتنا على صوت آلة تنبيه سيارة يقودها شخص عصبي، فأسرعت في خطاها لتبتعد عن طريقه. وبينما هي سائرة انتابها نوبة من خيبة الأمل، ألم يبق شيء من المدينة الساحرة التي أحبها والدها؟ بدا لها أن الموسيقى الوحيدة الباقية هي وقع الأقدام على الأسفلت الصلب. أما أقرب شيء للشعر فكان السجع المكتوب على اللافئات المهملّة. وأدركت الحقيقة وهي عدم وجود أي شيء ساحر في تلك المدينة على الإطلاق. وهزت كتفيها ونظرت إلى الورقة التي كانت تطبق بدنها عليها. وحسب الوصف الذي أعطي لها، كان العنوان المكتوب في الورقة على مسيرة عشرة دقائق من حيث كانت.

وما أثار دهشة مارييل اكتشافها أن العنوان الذي معها كان عنواناً لمصنع. ومع ذلك اجتازت البوابة ومشت بين جموع النساء اللاتي كن في طريقهن إلى الكاتين لتناول وجبتهم. وأخيراً لمحت مكتباً بدا لها وكأنه مخصص للاستقبال، فدخلته وهي ما زالت ممسكة بالورقة المدوّنة عليها العنوان وكأنها وثيقة مرور تبيح لها الدخول. فسأها شاب باللغة البولندية وهو ينظر إليها بدهشة:

«هل من خدمة أسديها إليك؟»

فردت عليه قائلة وهي تحمد الله على بعد نظر والدتها وإصرارها على تعليمها تلك اللغة التي أتقنت الكلام بها بطلاقة:

«نعم... أريد خالتي صوفي ياروسكا وقد أعطيت لي هذا العنوان فإذا كانت تعمل هنا، أرجو أن تسأل لي عن الموعد الذي تنتهي فيه من

عملها حتى أنتظروها في الخارج».

فارتجفت شفتا الشاب وهو يقول لها:

«لا داعي لذلك، فخالئك هي إحدى مديرات المصنع ويسميتها أن تترك ابنة شقيقتها تنتظر في الخارج، فإذا تبعثني سأصحبك إلى مكتبها».

وتبعته الفتاة وهي مشدوعة في صمت صاعدة وراه السلم. كانت والدتها قد أعطتها فكرة عن صلاحية رأي خالتها. أما أن تكشف أن شقيقة والدتها الرقيقة اللطيفة هي رئيسة لقطاع صناعي فهذا ما لم تتوقعه إطلاقاً. ومع ذلك قالت مشاعرها المضطربة وقالت للشاب وهو يمد يده ليفتح مقبض الباب:

«أرجو ألا تعلن حضوري فإني أريد أن أفاقتها بزيارتي».

وبالأدب البولندي المعروف احترام رغبتها وصك كعبي خذائه معاً وانحنى لها قائلاً باهتسامة تتم عن فهمه لموقفها:

«كما تريد».

وانتظرت مارييل حتى وصل الرجل إلى نهاية السلم قبل أن تفرع على زجاج الباب المؤدي إلى المكتب. وعندما سمعت الأذن لها بالدخول عبرت عتبة الحجرة وأغلقت الباب ورامها بعنبر. ورأت سيدة جالسة وراء مكتب كبير وهي منهكة في أكداش الأوراق التي أمامها. ولما لم تلتفت إليها بمجرد دخولها، انتظرت مارييل وقد أطبقت يديها بشدة من الفلق. وأخذت مارييل تتأمل تلك السيدة وتحاول أن تجد تشابهاً بين والدتها الرقيقة ذات العينين الهادتين وبين تلك السيدة التي تجلس أمامها.

وقالت في نفسها إن أمها لا تستطيع أبداً القيام بهذا العمل الذي تقوم به خالتها بالكفاءة البادية عليها. والغريب أن وظيفة إدارة

المصنع كانت ثلاثتها أكثر من ملامتها لأي رجل يقوم بالعمل نفسه.

وتبعت من تأملاتها على صوت خالتها وهي تقول لها:

«الآن وقد انتهيت من التأمل في شخصي بهذه الدقة، فلا أخبرتني عما تريد».

ووقفت السيدة لتدور حول المكتب ثم استندت إلى أحد أركانها بينما أخذت تبحث عن الثقاب لتشعل سيكارتها.

وكان ثوبها الصوفي الرمادي يصل إلى حافة خذاها الطويل المصنوع من الجلد الرقيق الناعم. وكان يلتف حول خصرها الدقيق حزام أحمر يضاهي لون الغلالة الحريرية المعنودة تحت ياقة ثوبها بأناقة وحكمة. وقد أشارت ملباسها إلى أنوثتها الراقية التي لم يسلب تجلحها في العمل شيئاً منها.

ولما حانت ساعة التعارف وجدت مارييل صعوبة كبيرة في التطق. ومع ذلك سعلت قليلاً لتساعد صوتها على الخروج من حلقها وقالت بعد أن رأت خالتها وهي تقطب جبينها تبرماً بموقفها:

«أنا مارييل مور، ابنة أختك. قادمة من انكلترا، وسبق لي أن أرسلت لك خطباً عندما توفيت والدتي لكنت لم تردني عليه».

وجاء دور خالتها في البحث عن كلمات تقولها. فبدت عليها الدهشة والشك بينما انتظرت مارييل بقلق شديد رد فعلها الذي جاء فجأة، إذ انبعثت منها شهقة عميقة مشحونة بالمشاعر القوية ومدت إليها ذراعها لتحتضنها بلهفة وهي تقول:

«ابنة إيفا! ابنة أختي الحبيبة».

وجرت مارييل إلى ذراعي خالتها المستدين نحوها. ولفترة دقائق، اختلطت الضحكات بالدموع وجمعت بينهما روابط الحب الأمرية.

حينئذ اختفى تماماً فتاع صوفي المتفطرس، عندما أمسكت
مارييل على بعد ذراعها لتتأمل ملامحها بنهم باحثة عن التشابه
الموجود بينها وبين أختها الكبرى التي أحبها حباً كبيراً. وقامت تقول:
«نعم، أراها فيك، ورثت عنها شعرها الفاتح وعينيها الرماديتين وملامح
وجهها الدقيقة. كما تشبهنيها في قوامك المشوق الرشيق».
ثم أمالت ذقتها بأصابعها الرقيقة وقالت:

«ومع ذلك أرى في هذا القم أنراً للعناد الذي لا بد ورثته عن والدك. إذ
لم يستطع غير والدك بإرادته اللوية أن ينجح في إبعاد شقيقتي
العزيزة عن كل ما اعتادت عليه وأحبه لتواجه الحياة في بلد غريب
عليها».

فقال لها مارييل وقد لاحظت عنف كلمات خالتها، محاولة
الوقوف موقف المدافع عن سبعة أبيها:

«لقد ربط بينهما حب شديد».

وردت عليها خالتها بسرعة قائلة:

«أعلم ذلك، كما يعلم الجميع أن كلاً منهما كان ملتبساً للآخر. وكان
حبها كالصباح الذي أضاء تلك الأيام التعيسة وألقى نوراً على
المحيطين بها. لذلك كان الجميع على استعداد لمساعدتها على الفرار
وعندما تسرب إلينا خبر وصولها سالمين إلى انكلترا، أقيم احتفال
أذهل الألمان فتحيروا من أمرنا، وحاموا حولنا يحاولون معرفة سبب هذه
الأنوار».

وضحكت الخالة عندما استعادت هذه الذكريات وشاركتها
مارييل في ضحكها ولكنها شعرت بغصة في حلقها. لقد كان
سلوك خالتها لطيفاً إلا أنها شعرت بأنه مفتعل، وكان الذكريات التي

تستعيدنها لم تكن كلها سعيدة.

وأخيراً قالت مارييل:

«لماذا لم تردّي على خطابي يا خالة صوفي؟ كتبت إليك بمجرد وفاة
والدتي لشعوري بأن هذه رغبتها. ولما لم أتلق منك رداً بدأت أقلق،
وافترضت أنه ربما اعترضت الرسالة ظروف منعها من الوصول
إليك، مثل تغيير العنوان أو ضياعها في الطريق. ولم أتحمّل فكرة جهل
الفرد الوحيد الباقي على قيد الحياة من أسرة أمي بخير وفاتها».

وكانت يدا صوفي ترتجفان من الانفعال وهي قد يدها لتأخذ
سيكارة أخرى من علبتها. محاولة تفادي نظرة مارييل المتسائلة. ولم
يفلح الدخان المتصاعد من فمها في إخفاء نظرتها التي تدل على الحجل
والقلق. وأخيراً قالت وهي تحاول الاعتذار عن تصرفها وتبريره:

«أسفة لعدم ردي عليك. والواقع كنت أنوي الرد. لكن الخبر أزعجني
في ياديء الأمر فليت أياماً لا أقوى على شيء غير استرجاع الأشياء
الصغيرة التي أذكرها عنها. طريقة يريق عينيها عندما تبسم، وروحها
المرحة، وخفة ظلها، وحرصها على مساعدة المتعبين. كنت في طور
المراعاة عندما غادرت الوطن إلى انكلترا إلا أن روابط العاطفة بيننا
ظلت قوية حتى صدمتي موتها صدمة شديدة».

وارتجفت شفتا مارييل من التأثر، وكانت على استعداد لقبول
شرح خالتها واعتذارها بدون الحاجة إلى المزيد من الكلام، إلا أن
صوفي رأت أن تسترسل في كلامها، فامتنع لون وجنتيها وهي
تضغط على نفسها لتكون صريحة مع الفتاة ذات العينين الرماديتين
اللتين تشبهان عيني شقيقتها، لذا تلعثت في كلماتها واعترفت قائلة
بصوت خافت:

«غضبت في قرارة نفسي من والدك لقيامه بما اعتبرته في ذلك الوقت عملية اختطاف لتفريقي، وعمرت على أوقات لمسه فيها بمرارة على الوحدة القاسية، والأسى القاتل اللذين عانيت منهما. وأشد شعوري هذا فكرت ذكراه حتى بعد موته».

وشهقت مارييل من الكلمات المؤلمة، وأخيراً اعترفت بالحالة قاتلة، «كنت مخبطة وعرفت ذلك الآن، كان في وسع إيلسا العودة إلى وارسو بعد الحرب لكنها رفضت ذلك قاتلة إنها وجدت في انكلترا عزاء في المنزل حيث أقاما. وحينئذ فقط بدأت أدرك شيئاً عن مدى حبها لبعضهما».

وتراجعت مارييل خطوة إلى الوراء وحدثت بعينين مלאها الألم وقالت تدين خالتها:

«كنت تشعرين بالغيرة من أختك ولم تهتمي بالكتابة إلي لأنك شعرت بأنني أنا أيضاً استحوذت على مكانك في حب والدتي. ظلت سنوات اتقن مقابلتك، خاصة بعد موت والدتي لأنني ظننت بسذاجتي أن وجودك قد يساعدني على تحمل فراقها، ولكن الآن...»

وسكتت مارييل عماً كانت تريد أن تضيقه من عتاب لخالتها. واستدارت متجهة نحو الباب، ثم توقفت عند عتبة عندما توسلت إليها خالتها قاتلة والدموع واضحة في عيائها:

«إنني أستحق الازدراء يا مارييل وأعترف بكل الكلمات التي صيرت منك، فأرجو أن تصدقيني عندما أقول إنني أسفة، وأن أحاول العفو عني».

ولو لم تكن مارييل ابنة أمها لما استسلمت لهذا النداء الصاغر من القلب، فقد ألمها استعداد خالتها لتجاهل وجودها، لكنها كانت

تشعر بالوحدة، فلم تستطع الاستغناء بسهولة عن حاجتها للحب الذي أظهرته خالتها نحوها في تلك اللحظة.

وببطء تراجعت مارييل من الباب، وأدارت وجهها نحو خالتها، ثم ارتقت في أحضانها مبدية بذلك عفرها عنها.

٢ - بداية الحرب

كان منظر نادي عقد الورد حيث ستفتح الفرقة عملها، متواضعاً عادياً في وضوح النهار. إلا أن مارييل لم تلحظ منظر واجهته الكثيرة عند دخولها بسرعة من الباب الخلفي وهي مشغولة البال بمشكلة تأخيرها في الحضور. فبالرغم من بساطة السيدة غلوري في بعض الأمور إلا أنها حاسمة فيما يتعلق بالعمل. أما بخصوص الأعذار بسبب التأخير فكانت تقابلها باستياء شديد، بل توقع الغرامات في بعض الأحيان.

ولحسن الحظ كان الموعد المحدد لظهور فريق الراقصات هو في الليلة التالية. أما في تلك الليلة، فكانت للفتيات الحرية في التصرف في وقتهن والقيام بأي شيء يحلو لهن، في حدود المعقول طبعاً. وبالرغم من نصيح السيدة غلوري لهن بالنوم المبكر إلا أنهن صمن على حضور الحفل النهائي لتجم الفرقة الذي كان يجذب إلى المسرح جموعاً كبيرة من المتفرجين في الستة أسابيع السابقة.

وكانت غرفة تغيير الملابس خاوية حين وصلت مارييل إليها. وعندما سمعت صوت البيانو أتياً من جهة المسرح تأكدت مخاوفها وعرفت أن التمرين قد بدأ بدونها. وبسرعة فائقة بدأت في ارتداء ملابس التمرين ثم قطبت جبينها حين تذكرت أن هناك مواضيع كثيرة يجب بحثها مع خالتها وذكريات تحتاج إلى مراجعتها معها. إذاً لماذا صممت خالتها على عودتها إلى النادي الليلي بدلاً من البقاء معها والتحدث إليها؟

«أخيراً قررت أن تشرطينا بحضورك»

هكذا قالت السيدة غلوري فأنتفضت مارييل من الدعشة عندما انفتح الباب فجأة وظهرت فيه تلك السيدة. ووقفت بعصية على العتبة وبسرعة قدمت لها مارييل اعتذارها قائلة:
«إنني جد آسفة يا سيدتي، حاولت الحضور في الموعد المحدد لكنني ضللت الطريق. أعذك ألا أكرر ذلك مرة أخرى. ومع ذلك فقد تأخرت دقائق معدودة فقط».

وصدرت منها تهيدة تتم عن ارتياحها عندما لاحظت أن ملامح السيدة غلوري لانت بعض الشيء. فقد كانت السيدة غلوري نفسها عضواً في فريق دولي للرقص، وكانت تعرف مدى انهيار الراقصة المبتدئة بالمدن الجديدة.

«لا بأس يا شارون، سأسمح لك هذه المرة بشرط ألا يتكرر ذلك مرة أخرى. أنتقهي».

وبخرج أومأت مارييل رأسها للتعبير عن موافقتها. وكعادتها دائماً كانت ترغيف من الداخل كلها ناداها أحد بأسم شارون. فكان الخداع الذي قارسه على رئيستها الجديدة الطيبة كرهياً على نفسها.

وامتدت التمرينات طيلة بعد الظهر، وكانت السيدة غلوري في أثنائها بلاية التذمر من أداء الراقصات، كما كانت حريصة على ضرورة اتباعهن للحركات المطلوبة. لذا كان الاجتهاد بادياً على الفتيات عندما انتهت فترة التمرين واشتدت رغبتهن في الوصول إلى غرفهن في الفندق القريب لراحة أقدامهن المتعبة قبل الخروج ثانية في المساء للترفيه والنزهة.

وكانت مارييل محظوظة، فبيتا هي تخلع حذاءها وتستلقي على سريرها للاسترخاء حمدت ظروفها التي لم تعطها زميلة في الغرفة

تضايقها بثرثرتها الدائمة. لأنها في حاجة إلى التفكير في مسائل كثيرة تدور في ذهنها وتحتاج إلى تسبيق حتى تقدمها إلى خالتها حسب تسلسل أهميتها.

وأفادت مترجمة على مظهر غرفتها وقد أخذ الليل يرخي عليها سدوله وخافت أن تكون قد تأخرت في النوم. وبسرعة نظرت إلى ساعتها وأدركت أن لديها عشرين دقيقة فقط تستعد فيها. فجرت مارييل إلى الحمام وفتحت الدش واختلطت بعض الملابس الداخلية من أحد الأدراج وأخذت تعقص شعرها وتضعه تحت طاقية الحمام ثم قلبت في خزانها لأختيار الملابس التي سترتديها في الخارج. وأخيراً وصلت إلى النادي الليلي قبل الموعد المحدد بدقائق وقد بدت عليها الأناقة والمظهر الجميل فمشت بخطوات متأيلة بغير كلفة أو تصنع. ووقفت سيارة خالتها أمام الباب في نفس الوقت الذي وصلت هي فيه إليه، ونزلتا معاً الدرجات الحجرية المؤدية إلى التلوي الكبير الذي جرى تطويره إلى ناد ليلي.

وعندما دخلتا إلى النادي استأمتا من الضوضاء الصادرة من الطاولات المزدهجة بالرواد والمتلفة حول حلبة الرقص الصغيرة.

وكانت اللوحات الزاهية تغطي الجدران بينما التفت عقود النباتات حول زجاجات الشراب الحمراء والخضراء المعلقة على الجدران بطريقة تعكس ضوء الكرة السحرية الدائرة والمعلقة في سقف القاعة. وكان الخدم، ينودون بمهارة وخفة حول الموائد التي يجلس حولها الضيوف وعبوثهم مثبتة على حلبة الرقص وهم يحتسون شراباً يكفيهم مدة طويلة. وكانت الموسيقى تعزف وتهب، خلفية ملائمة للمكان بألحان خافتة تنفث وروح الترقب المخيمة على الجمهور.

وفجأة أطفئت الأنوار تاركة حلقة من النور مسلطة على منتصف حلبة الرقص، وهذا الجمهور والنجم الصمت ثم انقجر في تصفيق عصبي عندما انسل رجل من الظلال المخيطة بالحلبة وظهر وسط حلقة النور. ولم تكن هناك مقاعد خالية في القاعة، وكان مكان الوقوف مكتظاً بالناس لذا كان من حظ مارييل وخالتها أن يسمح لهما بالوقوف في مقدمة الدائرة الخارجية للمشفرين. وحتى من تلك المسافة شعرت مارييل بقوة شخصية الرجل. فمن قمة رأسه ذات الشعر الأسود الفلامنكي حتى قدميه، ومن كل عضلة قوية في جسده كانت تشع جاذبية فطرية بوهيمية.

وبدون مبالاة بالأعين المتعلقة بكل حركة من حركاته سحب كرسياً صغيراً ووضع قدمه عليه ثم أسند منكبته فوق ركبته المرفوعة، وببساطة أخذت أنامله الدقيقة تداعب أوتار الغيتار المعلق في رقبته برباط أحمر زاه من الشاموا. وكان نفس اللون يتكرر في الغلالة التي يلبسها العنبر حول رقابهم القوية. وكان يلبس قميصاً أبيض من الحرير له أكمام متفوخة ومزمومة عند المعصمين، وللقميص فتحة مدببة من أسفلها تصل إلى الخزام الأحمر العريض الذي يطوق خصره. ويكمل ملبسه بنطلون أسود ضيق قد يبدو على غيره كأنه بدعة تقليدية لكنه يجعله يبدو غجرياً أصيلاً ذا كبرياء وشمو.

وأخذت أنامله الرقيقة تعزف الألحان. وبعد أن جال بنظره الساخرة بعض الشيء حول جمهوره المتحمس له، بدأ في عزف لحن عاصف جميل أثار به الشاعر. ولمدة ثلاثين دقيقة لا تنسى استجاب لرغبات المستمعين. وبدا أثر غنائه على المستمعات فأثارهن بسحره ودفعهن إلى الانفعال لدرجة البكاء، كما أثار على الرجال ودفع الدعاء في عروقتهم.

والذكريات الخلوة مجهول في مخيلتهم عن مواقف وغزوات كلها حم وقوة ومجد. وعندما بلغ بهم الانفعال ذروته حرمهم من سحر طريقتهم وسلبهم تشويقهم، بالانتهاء فجأة من أغانيه والاتسحاب من حلقة النور. ووقف الجمهور على أقدامه مطالباً بزيادة من الأغاني. وبلغ الحماس الذروة عندما عاد الرجل للظهور ثانية، وتوقف برهة وقد رفع حاجبه بكبرياء وبذت حركة مرهقة حول شفتيه وانتظر حتى هدا الصخب وتحم السكون على المكان. ثم انحنى من خصره وحيا الجمهور مودعاً إياه بلمحة العجز قائلاً:

«والآن أترككم في رعاية الله».

ولم تهدأ عاصفة التصليق إلا بعد بضعة دقائق استطاع الجمهور بعدها أن يتابع الحديث فيما بينه. وانتظرت مارييل وكلها تساؤلات، ومع ذلك ضغطت على مشاعرها بشدة بحيث بدت اللهفة في صوتها عندما سألت خالتها قائلة:

«من هو يا خالتي صوفي؟»

وابتسمت الخالة وقالت:

«اسمه روم بورو وهو نجم دولي من نجوم النوازي الليلية المشهورين والمحبوبين من الملايين في جميع أنحاء أوروبا».

وقطبت مارييل جبينها وقالت:

«ولماذا لم أسمع به قبل الآن؟ فلتكن هي مركز أصحاب المواهب من أمثاله، وحسب معلوماتي لم يظهر هناك مطلقاً».

«لا أظن أنه يريد الذهاب إلى هناك إلا إذا شعر برغبة أكيدة في ذلك، فهو يعمل فقط في الزمان والمكان اللذين يحلوان له، انه غجري أصيل من الذين لا يعرفون حدوداً. كل دولة هي دولتهم وهم يحتفرون فكرة

الحدود التي تفصل بين الدول. قد يظهر في باريس أحياناً ثم ينتقل إلى يودايت لمدة أسبوع آخر وبعدها بقليل يظهر في روما. حاول مدير النوادي الليلية في أوروبا أن يأخذوا منه الوعود للظهور لديهم في تواريخ محددة، لكنه يرفض كل هذه العروض. فالغجر دانمو الرجال و روم وفي قبيلته مائة في المائة، وأفراد قبيلته أولياء له. كما يدل على ذلك معنى اسمه روم بورو أي الرجل العظيم، وهو تكريم من جنس يؤمن بأن كل إنسان حر ويعترف بصفات الرجال العظماء ويمدح البارزين منهم».

وانتظرت الخالة لحظة لتعطي ابنة أختها الفرصة كي تستوعب ما قالته قبل أن تضيف قائلة:

«هل تريد أن تعرف إليه؟»

وانتأب مارييل دخول من شدة السعادة التي تركها البرنامج المثير في نفسها، واحتاجت لبعض الوقت لتتالك نفسها وتستوعب معنى سؤال خالتها. وعندما ردت عليها كان احمرار وجهها ولطفتها للقاءه أكبر دليل على رغبة في الاستجابة لخالتها التي ابتسمت وقالت:

«تعال»

ومشت أمامها في طريقها إلى الكواليس، ومركبا بين المناشد المكتظة بالمشاهدين الذين تباطأوا في ترك ذلك الجو المقعم بالشهرة والحماس، وكادتا تصلان إلى الباب المؤدي إلى غرفة ملابس الفنان عندما سمعتا صوتاً يتنادي صوفي. وكان عالياً قوياً متمشياً مع مظهر صاحبه. وهو رجل طويل القامة يلبس زي ضابط روسي ذي رتبة عالية، انتصب واقفاً وانحنى احتراماً لها بينما أخذت عيناها تلتفتان كل تفاصيل مظهر

ارتبكت صوفي لوجوده وقالت:

«لَمْ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَرَاكَ هُنَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ يَا سِيرْجِي».

وبدا الحرج في صوت صوفي عندما واصلت كلامها قائلة:

«أَقْدَمَ لَكَ يَا مَارِييلَ صَدِيقًا جَيِّدًا لِي هُوَ الرَّفِيقُ إِيغَانُوفُ الَّذِي سَبِقَ أَنْ عَاوَنْتِي كَثِيرًا فِي الْمَاضِي وَحَلَّ لِي كَثِيرًا مِنَ الْمَشَاكِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقَوَانِينِ الصَّارِمَةِ الْخَاصَّةِ بِإِدَارَةِ الْمَصْنَعِ».

وكانت كلمات المجاملة التي قالتها صوفي توحي لمارييل بالخدر الذي لم يفت عليها. إذ بدت صوفي خائفة من ذلك الرجل الذي تشبه نظراته نظرة الحية. كما كانت نظرة صوفي تحسّر مارييل بألا يكون رده فعلها مجافياً له.

وللأسف تجمع طيش الشباب مع التربية المتحررة التي اعتادت عليها مارييل، ولم تعجبها غطرسة الرجل، لذا كانت التحية بينها باردة ومختصرة. فبدت على ملاحه علامات عدم الرضي. إذ اعتبر أن كرامته قد أهينت، ولم يخفف الموقف قول صوفي وهي تبذل الضمت الذي ساد بينها.

«هذه هي مارييل ابنة أختي وهي انكليزية».

وعضت الخالة على شفتيها عندما شعرت، من البهشة التي

ارتبست على وجه مارييل، أن عبارتها بدت وكأنها اعتذار.

«الآن وقد انتهى العرض يا عزيزتي، شارون أرجو أن تنصرتي وتأوي إلى فراشك مبكرة».

قالت ذلك السيدة غلوري وهي تجمع فريق راقصاتها وفحوصهن على مشلحتهن. ولم تلاحظ وقع القبلة التي فجرتها بدون قصد.

وتسامل سيرجي ببساطة ولغتهام يعتبر أكثر من حب استطلاع، «شارون».

«إنه اسمي المرحي».

هكذا أسرع مارييل في تصحيح الخطأ الذي أخرجها وفضع سرها. لكنها لم تفلح في إخفاء خوفها الذي بعث تشعيرة باردة في كل أجزاء جسمها. وقيل أن تضيف السيدة غلوري شيئاً إلى كلامها وتقصص عن المزيد من سرها قالت مارييل:

«اعطني مجرد عشر دقائق أنصرف بعدها».

وواقفت السيدة المعجوز على طلبها فأومأت برأسها وانصرفت باحثة عن غيرها من الراقصات وتبعها مارييل وهي تقول خالتها: «لا تتأخري يا خالة صوفي، فليس لدي وقت طويل».

وعندما لحقت بها الخالة بعد ذلك بثوان كانت ترتجف من الخوف والغضب.

وكان باب إحدى غرف الملايس الخالية مفتوحاً فدخلتها صوفي داخل الغرفة وقالت:

«والآن أرجو أن تشرحي لي موقفك».

وأستندت الخالة ظهرها إلى الباب المغلق وقالت وقد تلذذتها الغضب:

«تكلني!»

إلا أن مارييل هزت كتفيها، إذ شعرت أن الحقيقة ليست بالقناعة التي تصوورها خالتها نفسها، ولم تمنعها من إطلاع خالتها على القصة التي ويرتها الصديقتان معاً كمخرج لموقفها من العمل في الفرقة.

وعندما انتهت من سرد قصتها امتنع وجه الخالة بشكل جعل

الخوف يسيطر على مارييل خاصة عندما قالت خالتها:
«أيتها الجلهاء المتهورة، عذبة التفكير»

وبدأ الخوف يتسلق قلب مارييل حتى وهي تعترض على هجوم خالتها:

«أنت شديدة القسوة عليّ، فكل ما فعلته أنني استعرت جواز صديقتي ولم أُنسب في أي شرر لأحده».

وفي البلاد التي تحتلها روسيا لا يجوز أن يستعير أحد جواز سفر غيره، ولا بد أنك تجهلين طريقة معيشتنا، فلماذا ظننت أن هذه المغامرة ستقتصر على مجرد التأنيب، ونصحك بعدم تكرار الحادث مرة أخرى فأنت مخطئة، ففي هذه اللحظة بالذات لا بد وأن سيجري إيفانوف يحقق مع الذين تعاقبتوا معك للعمل. وإذا ظهر أي أثر للشك في ظروفك سيستجوبونك لفترة طويلة.

وضحكت مارييل بعصبية. كانت الصورة التي أعطتها خالتها مبالغاً فيها، بحيث بدت لها وكأنها قصة تمثّل على المسرح ولا تستحق أن تؤخذ مأخذ الجد. إلا أن ضحكها كان له وقع سيء على خالتها، فظهر على وجهها تعبير لم تستطع مارييل تفسيره. وبعبصية دفعت الحالة مارييل دفعاً خارج غرفة الملايس ومشيئة في الممر الذي تقع فيه الغرفة الخاصة بنجم الملهى والتي يتجمع الناس حول بابها أعلى في رؤية نجمهم المحبوب.

وقدأت مارييل رجلاً قوياً يقف بالباب ليخرسه، وقد ضمّ ذراعيه على صدره العريض، وعبرت عيناه عن تيرمه بالمتفرجين المتجمعين حول الباب. ولدغشة مارييل لاحظت أن الحارس ابتسم مرحباً عندما وقع نظره على خالتها صوفي. وعندما أومأت برأسها نحو غرفة

روم بورو متسائلة عما إذا كان في الداخل، تقدم الحارس وأدخلها الغرفة بعدما تأكد أن أحداً من المعجبين لم يتسلل من تحت ذراعها.

كانت الغرفة خالية لكنها سمعنا صوت أدراج تصفّق وصوت صفارة يلا نعم تتخللها أصوات تتم عن التبرم والرغبة في السرعة في اللبس وكانت الحالة تحاول أن تكبت عصبيتها واهتمامها الشديدتين عندما قال لمارييل:

«اعطني عشر دقائق معه بمفردي، وسأقدمك له فيما بعد... هناك شيئاً هاماً يجب أن نبحثه معاً».

ولم تنتظر جواباً من مارييل بل طرقت بشدة الباب الذي انفتح فوراً وجاء صوت يقول:
«حييتي!»

ولما صدرت هذه الكلمة الطقائية من شفتي الرجل، انتابت مارييل نوبة من الدهشة، إذ لم يظهر على خالتها أنها على مثل تلك العلاقة الحميمة مع الرجل كما يناديها باسم حييتي.

وبعد ثوان دخلت خالتها إلى الغرفة الداخلية. وبالرغم من محاولة مارييل عدم استراق السمع، لم يقنعها بأن لحظة الحديث الذي بدأ بفرحة كبيرة، أخذ الآن طابع النقاش الحاد. فأخذت مارييل تروح وتجيء في الغرفة الخارجية محاولة ألا تستمع لصوت خالتها المشغط. وفي الوقت نفسه كانت تتساءل عن تلك الخدمة التي كان الرجل يرفض تقديمها إليها. ولاحظت أن صوت خالتها أخذ في الارتفاع التدريجي وهي تصرّ على مساعدته إياها في مشكلتها. إلا أن نبرة صوته ظلت ثابتة. ومما زاد في انتباه مارييل وجعل أذنيها تسترقان السمع، أنه مكتومة صدرت عن خالتها وصلت إلى سمعها بوضوح

لا ريب فيه. لقد كانت خالتها تبكي! وكانت دهشة مارييل عظيمة. بحيث تسمرت في مكانها لا تستطيع حراكاً. ولكن عندما سمعت تلك الأنة قررت أن تتصرف وتتدخل في الأمر لسواء كان روم بورو مشهوراً أم لا. فلا بد أن يحاسب على تصرفاته. وبلغ بها الغضب درجة لم تجعلها تنفرد في فتح الباب دون استئذان في اللحظة التي رآته فيها يسبح دموع خالتها بنديل كبير. ويقول لها وهو يرفع ذفتها بأصابعه. وينظر في عينيها المتلذذتين بالدموع: «لا بأس يا حبيبتي. سأفعل ما تريدته. لكن تذكرني أنني أؤدي هذه الخدمة من أجلك فقط. وليس لأني أشعر بالعطف نحو تلك البلهاء التي تتوسلين من أجلها».

حينئذ تراجعت مارييل. بدون أن يلحظ وجودها ولم تفهم شيئاً من كلماته. إلا أن النظرة التي بدت في عيني خالتها أوضحت لها كل شيء. فقد شع الحب الشديد في عينيها وعلى شفثيها اللتين تنصفيان في الظروف العادية بالجمود. أما الآن فقد كانتا ترجيفان انتظاراً لقبائمه. ولم تشأ مارييل أن تنتظر حتى ترى إذا كانت دعوة خالتها نالت استجابة الرجل الواقف معها.

وأثناء انسحابها بسرعة تضرعت بكومي كبير أحدث صوتاً مدوياً يوقظه على الأرض. فركضت عبر الفرفة محاولة الهرب لكن عندما وصلت إلى الباب نادتها خالتها قائلة:

«لا تذهبي يا مارييل. أريد أن أقدمك إلى صديق عزيز وحميم جداً لي».

اضطرت مارييل أن تصرف النظر عن فكرة الهروب واستدارت بضيق لتتعرف بالرجل الذي انضج أن له مكانة كبيرة في حياة

خالتها.

هذه. يا عزيزي روم. مارييل مور ابنة أختي. وهي قادمة من انكلترا. فيعد أن حضرت حفلاً واحداً لك أصبحت إحدى المعجيات بك أليس كذلك يا ابنتي؟»

فبلغت مارييل ريتها بصعوبة وردت على خالتها بعد أن فهمت منها نوع الإجابة التي تريد سماعها. وبالطبع... لقد كان عرضك رائعاً جداً. فاحتضني لها وقال بلهجة انكليزية سليمة لكنها جافة إلى درجة التهكم:

«أشكرك يا أنسة مور... إنك حقاً كريمة».

وعندما جال بنظره في وجهها. شعرت وكأنها ثلاث من الوجود فحتى لو كانت ذبابة أو بعوضة لشركت في نفسه أثراً أكبر. ولظهور بعض التعبير على ملامح الفجري الذي بدا عليه الملل. وضحكت خالتها معللة على كلامه:

«أنسة مور! كلا... لن أسمح لك بهذا النداء. فلا يجوز لقريبتي الوحيدة أن تعاملها بهذه الطريقة الرسمية المتكلفة. وأنا أصر على أن تتدعينا باسم مارييل».

ثم وجهت الكلام لابنة أختها قائلة:

«وأنت كذلك... يجب أن تدعيني باسم روم».

وتعجبت مارييل من نظرة خالتها للأمور. فإن معارضة روم بورو كانت واضحة وضرعت هي بأنه يبدل مجهوداً كبيراً ليبدو مهتماً بها. وبالرغم من عدم شعورها بالضرورة. هالها أن تصادف لأول مرة في حياتها اهتالاً تاماً بشخصها وجمالها الذي لا ينكره أحد.

غير أن رقة رده كانت دليلاً على نفوذ خالتها عليه إذ قال:

«إذا كان هذا يسعدك سأناذرها باسم مارييل بشرط ألا تعترض ابنة أختك على ذلك».

وبسبب النظرات التي تحولت إليها، اضطرت مارييل إلى أن تستسلم للكلامه بهدوء، وقالت متعجبة من المرح السريع الذي أظهره:

«طبعاً لا اعتراض لدي».

وأظهرت الحالة رضاها عن ابنة أختها، خاصة وقد لاحظت وجشيتها اللتين صيغتهما حمة الخجل، كما لاحظت ابتسامة روم الغامضة لذا أعطت الاثنين أهمية مبالغاً فيها، وتصورت تطورات سابقة لأوانها، فاقترحت عليها قائلة:

«الآن وقد تم التعارف بينكما دعونا نذهب لمكان نتناول فيه الطعام وبعطيكم الفرصة لزيادة تعارفكما».

وفي الحال تمتصت مارييل بكلمات الاعتذار والفضة اقتراح خالتها:

«أسفة يا خالتي، كنت أود أن أكون معكما لكن يجب أن أعود إلى الفندق».

ولم تكن مارييل تبحث عن عذر للرفض، فقد تسببت في ذلك اليوم في غضب السيدة غلوري بما فيه الكفاية، كما ازداد اعتقادها بأن محاولة القجري لاجتماعها والتأديب معها لا بد ستفتر إذا فرضتها خالتها عليه أكثر من ذلك. لكنه فاجأها بإصراره قائلاً:

«أعرف مطعمًا مختلفًا تمامًا عن غيره في المدينة وهو لا يبعد كثيراً عن هنا، لكن يجب أن نذهب بالسيارة وستجدان بعد الأكل أن جودة الطعام تبرر الذهاب إلى ذلك المطعم».

وفي الحال عبر القرفة وأصدر تعليماته إلى حارس غرفته قائلاً:

«أحضر السيارة إلى المدخل الخلفي للسيارة يا روباه».

كما أصدر إليه بعض التعليمات الأخرى بلغة لم تفهمها مارييل

ثم عاد ونظر إلى صوفي قائلاً:

«لقد نفذت طلباتك، فهل أنت راضية الآن؟»

فأومأت برأسها وبدا عليها وكأنها ستفجر بالبكاء ثانية في أية لحظة، لكنها قالكت أعصابها وبداثة الابتسامة بأخرى.

أما مارييل فأرجمت هدون سبب واضح، وشعرت بخسوف لم تستطع تفسيره، لا شك بأن في الجو شيئاً من الخداع والتأنيب وما معنى هذه النظرات الصاعدة المتبادلة بين خالتها وبين هذا الصديق الغامض؟ وتبرمت من نفسها لهذه الشكوك وحاولت أن تهدأ مخاوفها. ولكن... ترى ما هو الدافع الخفي لدعوته لها على العشاء؟

كان المرء مظلماً مليئاً بالظلال، وكادت مارييل أن تنعثر على الدرج وهي تتبع خالتها التي يمكن وصف حركاتها الحرة بأنها كانت غامضة. وجمست مؤنية مارييل بغضب على ارتطام خذاتها بالدرج الحجري:

«وَألا يمكنك التزام الصمت؟ وهل يجب أن يعرف المحي كله أننا هنا؟ وعقدت الدعشة لسان مارييل ولم تعلق على كلام خالتها، فلم تر مبرراً لأن تسلل بهدوء من السلم الخلفي لأحد التواقي الليلية. إلا أن طلب خالتها كان مطابقاً لتصرفها الغامض، وأصبح الجو متوتراً بحيث أنهم عندما وصلوا إلى المرء الضيق، وجدت مارييل نفسها تنكز تلقائياً بطريقة مشي خالتها في الأماكن التي يحجم عليها الظلام. وبدلاً من أن تستفسر من خالتها عن سر تحذيراتها الحاسمة، وجدت

نفسها تطيعها بقلب يسرع في دقاته وهي تأمرها بأن تصحب روم بورو في سيارته بينما تفود هي سيارتها وتأخذ معها الحارس روبا. ولاحظت مارييل أن روم بورو يضم شفتيه بإصرار وهو ينتظر حتى وصلت سيارة صوفي إلى نهاية المسر لتتحرق نحو الطريق العام. ومع ذلك لم يبدأ في تشغيل محرك سيارته، ولكن عندما مرت سيارة أخرى قادمة من جهة مجهولة لتتبع سيارة خالتها مباشرة، بدأت مارييل تنك في عدم بدء روم في تحريك السيارة. توتر صوفي وإصرارها على عدم إحداث أي صوت، وعلى الذهاب للمطعم منفصلين. كل هذا جعلها تشعر بغطرها أن سيرجي إيفانوف أعطى تعليماته لتعتيقهم. وفجأة اعتدلت مارييل في جلستها عندما قهت الموقف بعدافيره. ومن خلال صوت محرك سيارة روم بورو كانت تستعيد في ذهنها الكلمات التي سبق أن وجهها إلى خالتها والتي وصلت إلى أذنانها عفواً لكن في هذه المرة كانت تلهم معانها.

«لا بأس يا حبيبتي، سأفعل ما تريدته لكن تذكرني أنني أسدي هذه الخدمة من أجلك فقط وليس لأنني أشعر بالعطف نحو تلك اليلها، التي تتوسلين من أجلها».

إذا كانت هي السبب في استعطاف خالتها له ومطالبتها بمعاونتها. يا لها من غيبة لأنها لم تفهم هذه الحقيقة من قبل.

وكانت السيارة قد تركت ضواحي المدينة وأخذت تسرع في طريقها عبر الأراضي الشاسعة، بينما كانت هي تجمع شتات أفكارها الحائرة وأخيراً سألت روم:

«إلى أين تأخذني؟»

وكان روم متهمكاً في قيادة السيارة والانحراف بها في منحى خطر فلم يرد عليها مباشرة.
«هل يملك هذا؟»

وردت عليه بعدة ظهرت في نبرات صوتها:

«بالطبع يمتني، فأنا مرتبطة بالاشتراك في عرض غداً. وسواء رضيت خالتي أو لم ترض لا بد أن أكون في حفل افتتاح النادي الليلي. فلا تظن أنني لا أنهم خطفكها. إن عدم وجود جواز سفرني يسبب لها حرجاً مع صديقها. لذا قررت أن تبعثني عن طريقه حتى تهدأ هذه العاصفة. فهي ترى ضرورة الاحتفاظ بالتفاهم الموجود بينها وبين ذلك الشخص المسؤول. حتى ولو كان ذلك على حساب الولاء لأحد أفراد أسرته».

وأخذت نفساً عميقاً من شدة التأثير وقالت:

«كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ وكيف تستطيع أية امرأة أن تتعاون مع رجل كهذا؟»

ولجأت أدار روم عجلة القيادة بعنف تسبب في ارتطام كتفها بجسم السيارة، ولكن غضبها تغلب على مشاعرها بحيث أنها لم تشعر بالألم. وبعد أن توقفت السيارة على حافة جزء مزروع من الطريق قال لها:

«أهذا ما تظننته؟ لقد مضى عليك في هذه البلاد ساعات معدودة فقط ومع ذلك تنجراين وتعارضين آراء الذين يعرفون من تجاربهم المبررة ماذا سيحدث. إن تصرفك هذا مثل تصرف الطفل العنيد يا أنسة مور. فبدلاً من تكليفي بمسؤولية تهريبك. يسعدني الآن أن يقع علي الاختيار للتخلص منك».

ووقع الصمت بينهما كالسيف الحاد. بينما أخذت السيارة تنهب الأرض متابعاً سيرها ومخترفة عدداً من القرى الصغيرة والمزارع التي تظهر عن بعد في الظلام بنوافذها التي يشع منها النور. وبدأت عينا مارييل تطرفان بينما أخذ التعب ينال منها. وشعرت بتوتر شديد بسبب الأحداث المثيرة التي مرت بها أثناء النهار. إلا أن دفع السيارة وحركتها الرتيبة جعلها تشعر بالرغبة في النوم بحيث لم تستطع مقاومتها. وأفاق فجأة عندما تركت السيارة الطريق العام ودخلت في طريق وعرة جعلها تهتز بشدة وهي في طريقها إلى الغابة. ولم يبذل روم أي جهد لحمايتها محاولاً التخفيف من سرعة السيارة. بل استمر في طريقه فوق الأرض الوعرة وعلى وجهه تعبير بالارتياح والتشفي. أما مارييل فحاولت أن تحتفظ بتوازنها وصمتت على عدم الاعتراض. ولكن عندما داس فجأة على فرامل السيارة شعرت كأن كل عضلات جسمها قد فترت من أمانتها. وأخيراً قال لها بلهجة أمرة: «سئشي من هنا».

وتركها تلنس خطاياها بنفسها بين أشواك الزراعة الكثيفة التي أوقف السيارة فيها. وشعرت أنها لو انتهت بتدبير الموقف الذي وجدت نفسها فيه لأشار بلا شك إلى ضرورة التخلي والتسوية. لذا سارت بمفردها وخرجت من بين الأغصان التي تغلغل في كل قطعة من ملابسها وشعرها كما تعثرت ووقعت وهي تشي وراء روم. وقد اختفى عن نظرها بين الأغصان. وأخذت تسأل نفسها بمرارة عن سبب ملازمته لرجل من هذا النوع في بلد عرف رجاله بالشهامة. ثم أسرعت في خطاها عندما سمعت نباحاً شرساً لعدد من الكلاب. وبعد دقائق قادها الطريق إلى مساحة صفت حولها في دائرة ما يقرب من خمس

عشرة عربة من عربات الفجر المفلقة. ورأت عدداً من نساء الفجر جلسن حول النار الموقدة وهن يشرفن على طهي الطعام في قنور تنبعث منها رائحة شهية. وكان المكان موقعاً مسرحياً جميلاً يلائم تماماً النساء الجمالسات فيه. وكان شعر النساء طويلاً أسود لامعاً مصففاً في صفائر طويلة. أما ملابسهن فكانت طويلة ذات طيات عديدة وصندور عارية. فثحاتها واسعة. وكانت ألوان ملابسهن زاهية متناقضة مع لون أجسامهن السمراء وغيوتهن السوداء المعبرة. كما رأت عدداً من الرجال مضطجعين في ظل شجرة كبيرة وهم يتبادلون الأخبار انتظاراً لأن تقدم نساءهم الطعام. وكانوا يلبسون ثياباً رثة قديمة من نفس طراز الملابس التي كان روم يوردها. يلبسها أثناء عزفه. وقد أشار ذلك المنظر خيال مارييل حتى كادت تتصور أن صوت قارعي الدفوف والمقنن سيتصاعد من الدخان المنبعث من التران.

وعندما حيا روم الموجودين التفت الجميع إليه. وفي لحظة كان محاطاً بالرجال الذين أبدوا فرحهم بلقائه وهم يحيونه ويربتون على ظهوره. كما حيت النساء اللاتي بلغن من الحماض ذروته لقلانه. ودار الحديث بينهم جميعاً بلغة تتخللها الكلمات البولندية لكنها أساساً لغة لم تفهمها مارييل. وللمرة الثانية في ذلك اليوم شعرت بعدم اهتمام الناس بها. بينما أخذ الفجر ذوو المشاعر الملتبسة يتجمعون لتحية روم يورده. بدون الاعتراف ولو بنظرة واحدة بوجود الفتاة النحيلة التي تصحبه والتي وقفت بينهم مثل الزهرة الصفراء الهادئة في حقل مليء بزهرة المستحاشن الأحمر. واستراحت عندما شرح لهم باللغة البولندية قائلًا:

«لقد اصطفت معي يا أصدقائي زميلة ستشاركنا رحلتنا. وستكون

في حياتي دائماً، لذا لا تسألوكم الشكوك من جهةها، فأرجو أن ترحبوا بها وتحملوا عدم درايتها بطباعنا وعاداتنا.

فالتفت العيون الحذرة تنقدها، ولم يظهر الموجودون شيئاً مما كان يدور في قلوبهم من ارتياح، ومع ذلك أشعروها بوجود عباءة نحوها بعث في نفسها الخوف، ودفعت شابة جموع الملتفين حولها وتقدمت منها لتتطهر إليها عن قرب بجرأة وقحة، وبدأ عليها أنها تعرف جمال نفسها وهي تقف أمام مارييل بخصرها المتمايل وعينيها الراققتين لثقتهم كل تفاصيل مظهرها. وفجأة زمت شفتيها وقالت:

«لا نريد امرأة غريبة هنا».

وترددت همهمة بين العجرات تعبر عن موافقتهم على قولها، كضاهم تضليل البوليس وغيره من المسؤولين الصغار الذين يتدخلون في حياتهم، وقال روم بيرو:

«قلت إنني سأكون مسؤولاً عنها تماماً، ألم تعد كلمتي تكفيكم؟»

واستطرد يقول وقد رقت نبرته وهو ينظر إلى الرجال الغاضبين:

«يبدو أن هذه القبيلة أصبحت تحت حكم النساء في غيابي، بحيث تأتي أوامري في المرتبة الثانية بعد أوامر الفتاة لا لا».

ولم يتحمل الرجال كلامه المهين فدفعوا لا لا بعيداً حتى ترنحت بين جموع الواقفين الذين قالوا كرجل واحد:

«ما زلت زعيمنا يا روم بيرو، وتستطيع الفتاة أن تبقى بيننا».

ونفرت النساء وبقي لرجال المناقشة شؤونهم الخاصة. وقبل أن ينضم إليهم روم بيرو أخذ مارييل جاتياً وأمرها قائلاً:

«من الآن فصاعداً عليك أن تطيعي أية تعليمات أوجهها لك، وبمجرد شرح ظروفك لمجلس القبيلة سيوافق بلا شك على بقائك بشرط أن

أكون أنا المسؤول عن كل تصرفاتك، فإن سلامتك أنت وأفراد القبيلة سوف تتوقف على طاعتك العمياء. فهل تفهين ما أقوله؟»

إلا أنها مالت برأسها وهي تقول معترضة على كلامه:

«لكنك تتناسى أنني لا أريد البقاء هنا، الفرار لم يكن فكرتي، لذلك فإن كل هذه العملية المثيرة لا داعي لها، فلوم تتدخل أنت وخالتي في شؤوني لأمكن حل المشكلة بشرح بسيط لطروفي، فأنا لم أخطئ، أن كل ما فعلته هو أنني خالفت القانون بعض الشيء، لكن حتى الروس لا يستطيعون تحويل خدعة بسيطة إلى جريمة شنعاء».

وحاول روم جاهداً أن يحتفظ بهدوء نبراته إلا أن الغضب كان

يادهاً بوضوح في كلماته وهو يقول من بين أسنانه المظلمة:

«لولا خالتك لسلتكم إلى سرجي إيفانوف شخصياً حتى أتسفي فيك وأنت تدمين على كلماتك هذه».

وكانت كلماته تدل على صعوبة فكرة تقبل القبيلة لها، بحيث وهنت

ثقتها وزعزعت، ويبدو أن شيئاً من ترددها ظهر عليها لأنه توقع منها ردّاً إيجابياً على سؤاله:

«هل أنت مستعدة للتعاون معنا؟»

فدالت وهي تعترف بهزيمتها:

«لا بأس، سأفعل ما تطلبه مني ولو مؤقتاً».

واستراحت مارييل عندما لم يحاول أن يستغل انتصاره عليها.

لكن قلبها أخذ يهتز بقلق عندما أشار لأحدى العجريات التي تقدمت منه بتناقل، إلا أن مارييل لم تلمس فيها روح العداة التي أبدتها

الفتاة لا لا عندما قدمها روم لبعضها قائلاً:

«مارييل، هذه هي كوري زوجة صديقي الحميم روبا وسوف

تسافر معهم كجزء من أسرهم.

ثم تابع الحديث قائلاً:

«ها أن مارييل تتكلم البيولندية بدرجة لا بأس بها، سيكون في استطاعتكم التفاهم معاً».

وجالت كوري بنظرها البراقة فوق وجه مارييل، وعندما لم تجد تردداً أو تراخياً ظهرت على وجهها ابتسامة بطيئة، فاستراح روم وانصرف وهو راغب لينضم إلى أعضاء مجلس القليلة الذين كانوا في انتظاره.

وقالت كوري بخجل وهي تتوقع رفضاً مخرجاً من مارييل: «هل أنت جائعة؟»

فتنهدت مارييل بارتياح لسؤالها وقالت:

«أشعر بجوع شديد وكأني لم أكل من مدة طويلة، كما أن رائحة طعامكم رائحة».

ربدا المرح على وجه كوري وهي تقول:

«يجب ألا نأكل قبل الرجال، لكني سأحجز لك كمية من الطعام تشبع جوعك».

ثم ابتسمت وقالت تداعب مارييل:

«نعالي... سأعطيك شيئاً قليلاً من القدر، فإذا اشتدت حدة المناقشة سينسى الرجال حاجتهم إلى الطعام، لذا يجب ألا نتركك تعاني من الجوع أطول من ذلك».

وضحكتها كالأطفال وهما تلتقطان من القدر قطعاً صغيرة من اللحم لأشباع الجوع الذي كان يؤلم معدة مارييل. وفي نفس الوقت تجاهلت كوري نظرات الغضب الصوبية إليها من بقية النساء وهن

منهككات في ظهيهن. وجلست الصديقتان تبادلان الحديث وتعارفان. واستجابت كوري لرغبة مارييل في معرفة كل شيء عن حياة الغجر الذين يعيشون في حركة مستمرة كالفصون المتأيلة والمياه المتدفقة، فسألت زميلتها قائلة:

«هل لديك أطفال يا كوري؟»

وعكست عينا كوري عاطفة الأمومة وهي تشير بيدها ناحية شيء يبدو كغطاء كبير موضوع على الأرض بين عربات الغجر وقالت بقر:

«لدي طفلان، ابن اسمه يوزي وابنة اسمها موزول وهو لي لغتك اسم ناكهة».

وعندما نظرت إليها مارييل بدخشة ضحكت كوري وتابعت كلامها قائلة:

«أنا ناسف كفيفة واحدة ولكل أسرة منا عربتها الخاصة، وتقوم كل زوجة بالظهور والغسيل والتنظيف لأسرتها، فبالرغم من سفرنا المشترك إلا أن كلا منا يحترم حرية الآخر ورغبته في العزلة، لكن إذا احتاجت أية أسرة إلى مساعدة ما تقدمها لها، أما الأطفال فلا يتبعون هذه القاعدة فهم ليسوا في حاجة إلى العزلة، فهم يختلطون طوال النهار وطوال الليل أحياناً».

ثم أشارت إلى الغطاء الكبير الذي لاحظت مارييل حركة تحته وكأن بركاناً صغيراً يثور بداخله. وتابعت كوري كلامها قائلة:

«ينام كل الأطفال معاً كما ترين تحت غطاء واحد. ويبدو أن أحدهم تلقى الليلة وسوف تحدث ضجة وضحك ومرح من الآخرين حتى يبدأ وينام الجميع».

وسألتهما مارييل وهي تتعجب من طريقة حياتهم:

«ألا تتعجبين من نفس الصحة طوال الوقت، وتستعين رؤية وجه جديد والاستماع لأراء جديدة من أن لآخر؟»

«نحن نختلط مع الآخرين، ولستنا ذاهبا في قبيلة واحدة، فكرياً قد يقرر زوجي أو غيره من الرجال ترك هذه القبيلة والانضمام إلى غيرها، فمثلاً قد نجد عند معترك الطرق إعلاناً تعرف منه أن قبيلة شقيق أو قريب موجودة في المنطقة فنترك هذه القبيلة ونبحث عن الآخرين. وهكذا يستمر ارتباطنا بأسرنا ونعرف منها جميع الأخبار، من مات ومن ولد ومن سيتزوج.»

استول الحديث على انتباه مارييل حتى أنها اعتبرت عودة الرجال شيئاً غير هام. وعندما ظهر روم يورو و روبا زوج كوري من ظلام الليل، ودخلا إلى حلقة النور طلبا الطعام بدا التبرم على وجهها وسأل روم مارييل قائلاً وهو يسرع في التهام الطعام الذي قدمته له كوري:

«ألا تريدان معرفة القرار الذي اتخذته المجلس بخصوصك؟»

فردت عليه مارييل بوقاحة قائلة:

«بما أن آرائي لا قيمة لها، فلا فائدة من السؤال.»

فوافق على أقوالها بغضب وقال:

«معك حق، ومع ذلك أجد لزاماً علي أن أوضح لك بأن المجلس اتخذ قرارات في صالحك، فإكراماً لي، قررنا السماح ببقائك. وإكراماً لحالتك ستكونين ضيفة مكرمة طفيلة بقلبك هنا، لكن بشرط ألا يخرج وجودك أحداً. فالعجبر يعتبرون تصرفات الأغراب غريبة فيجب أن نعتز بهم إذا أمكنوا مخالفتهم من قدرتك على معايشة نساتهم بتجارب.»

وكانت مارييل على وشك الاحتجاج على وضعها تحت الاختيار عندما انسل شخص إلى الجزء المضيء في وسط المعسكر ليغني برسالة هامة في أذن روم. وفجأة وأنه يشور مثل الحيوان المطارد ويصمت ثم يتنفض واقفاً ويحتفظها بين ذراعيه ويرفعها عن الأرض قائلاً لها وهي تحاول الامتلات من قبضته:

«لا تتحركي ولا تتلفي بكلمة واحدة.»

وبينا هو يحملها إلى المنطقة المظلمة من المعسكر سمعت أصواتاً أتية من حدود المعسكر تجادل بهجولة واضحة. إلا أن هذه الأصوات حدثت فجأة عندما أنزلها روم إلى الأرض ودفع بها تحت الغطاء الضخم الذي يركب تحته الأطفال النائمون. وأخيراً اتضعت لها خطورة الموقف حين سمعت صوت سيرجسي إيفانوف ينوي في أرجاء المعسكر.

وتعلمون جميعاً عقاب الذي يؤذي بجرماً، فإذا وجد جنودي تلك الفتاة الانكليزية في معسكركم فلا داعي لأن أخبركم بما سوف يحدث لكم، فالفتاة جاسوسة ويجب القبض عليها.

وأصدر أوامره المشددة إلى رجاله بتفتيش عربات الفجر، فارتجفت مارييل تحت الغطاء عندما سمعت تكسير الأخشاب وتحطيم الأواني مما يدل على عنف الجنود أثناء قيامهم بعملية التفتيش. ولقت نظر أحد الجنود الروس أنين أحد الأطفال في نومه فسأل بحدّة:

«ما هذا؟»

فردت عليه كوري قائلة:

«إنه طفل قلق يئن في نومه فأرجو ألا تزعجه.»

وسمعت مارييل صوت الأغصان تتحطم تحت حذائه الكبير

كانت عربة الفجر متينة البناء تقف على عجلات عالية، وفي كل جانب منها ثلاث نوافذ تغطيها ستائر باهتة كانت في يوم من الأيام زاهية اللون. وفي مقدمة العربة باب مزدوج أمامه عتبة عريضة مثل الشرفة. أما جدران العربة فمن الخشب الزان الطبيعي المصقول، وسقفها أبيض اللون. وقطر الحاف زاهي اللون فوق أريكة منجدة تستخدم كسرير. وفي العربة كوسيان بدون ظهر وعدد من المساند المحشوة بالريش. هذا هو كل الأثاث الموجود في العربة التي تستخدمها مارييل كمنزلة لها.

استلقت مارييل على السرير، وأطبقت يديها على اللحاف بدون وعي وهي لا تزال تحت تأثير اللحظات الخفيفة التي مرت بها. ورأت على الحائط العاري ظل روم، وقد طال بسبب ضوء الصباح المدل من سقف العربة. وشعرت، بوجوده في كل شبر من العربة يحسن عليها من مكانه ويوجه إليها سؤاله:

وأما زلت تعتقدين أن جهدنا لا يعادل عن طريق سرجي إيلانوف عملية منرجية لا ضرورة لها؟

فتنظرت إليه وهي تفتت تعاليه عليها ووقاحتها في عدم الاهتمام بمشاعرها. فجلست كلياتها مريرة عندما ردت عليه معترضة بالواقع وقالت:

ولقد أخطأت، وأعرف الآن أن أعلى الوحيد في الحرية هو في يديك. وأيدي عشيرتك، لذا سأقبل كل ما في وسعي حتى أكون محبوباً

وهو يفترب من الأطفال الناضجين. وتصيب عرقاً من الخوف وهي تنظر محبوسة الأنفاس بينما وقف الروسي قريباً من رأسها يفكر هل يرفع الغطاء عن الأطفال أم لا. وكاد يغمى عليها من رد الفعل عندما قرير ألا يرفعها ويبعد عنه. وبعد نصف ساعة تم خلالها تفتيش جميع العربات ونزع كل شيء عنها، أمر سرجي إيلانوف رجاله أن ينوقفوا عن التفتيش ويتركوا المعسكر.

لديهم»

«كم أنت عاقلة»

فلما روم وقد شعر بخيبة أمل من عدم ردها بعصية كعادتها معه حتى الآن.

ومما زاد في شكه من موقفها الجديد هو اعتياده على مقابلة الناس له بحرارة سواء كانوا من أفراد جمهوره أو أفراد قبيلته، لذا وجد في موقفها الجديد شيئاً غريباً. وقالت صارييل في نفسها: إذا كان هذا هو شعوره فإنه سيصاب بيزيد من خيبة الأمل لأنها تعتزم في المستقبل أن توقف روم الجبار عند حده.

كانت سلامتها تتوقف على هذا الرجل الذي ينتعش من تيرمها الغريزي، ولكن بما أنها تفضل عدم المجازفة في البقاء مع القبيلة، قررت أن تكون على وئام مع ذلك الفجري المتعجرف.

لذلك رافقته وهو يصب الشراب الأحمر كالياقوت في الكؤوس الرشيقة وتغلبت على استمزازها، وفرت أن هذه الفرصة مواتية خطتها الجديدة، لذا قبلت منه الشراب بنظرة كلها دلال صوبتها نحوه من بين أهدابها الثقيلة، ورشفت قليلاً ثم همت:

«أشكرك، إنه لذيذ. هل هو من إنتاج مزارع كرومك في إسبانيا؟»
وعندما رفع حاجبيه من الدهشة لمزأها هذا، شعرت أنها ارتكبت خطأ جسيماً لكنه قال:

«ولماذا مزارعي أنا إسبانيا على وجه التحديد؟»

وأثار تسلوله أحمرار وجهتها وأجابته بتردد:

«لا أدري، لأنني أقرن الغجر دائماً بالآندلس وموسيقى الفلامنكو والرقص والشمس».

«إنك تفكرين في غجر أسبانيا الذين يعتبرون تصف رجل، وغالباً ما يكونون مستقرين في مكان واحد مثل الغجر الموجودين لديكم في انكلترا أو في ألمانيا أو رومانيا. أما هم لمرحل أصليون يقتصر ترحالهم على حدود بلد واحد أو حتى دولة واحدة، إذ توجد قبائل في روسيا و أمريكا كما تجدنيهم في أي مكان في العالم. من أوسلو حتى اسطنبول ومن الملايو حتى أفريقيا الجنوبية والبرازيل. فهل هذه الحقائق تدعشك؟»

فقطبت جبينها وقالت معلقة على كلامه، وقد بدا التسؤل في عينها الرماديتين الواسعتين:

«تقول هم كما لو لم تكن واحداً منهم».

وتقلت روم الدهشة لتعليقها. وبعد تردد بسيط سحب كرسيّاً وجلس عليه في مقابلتها وقد وقع ضوء الصباح على شعره الأسود الفاحم وجعل منه الصارم يبدو أكثر سباحة. وعندما بدأ في الكلام جاء حديثه بطيئاً في بادئ الأمر، ثم زادت سرعته وكأنه يجد الراحة في التخفيف من العبء الذي يحمله في قلبه من ذكريات دفنها منذ زمن طويل. فقال وقد أذهلها كسله لها عن أسرارها:

«بدأت حياتي مع الغجر في ليلة مقمرة من ليالي شهر مايو سنة ١٩٤٠ وكنت في الثالثة من عمري. لكنني أذكر بوضوح أنني استيقظت في سريري تلك الليلة على صوت قادم من السماء، وتلاء صوت هلنثته لأول وهلة رعداً. ومع ذلك لم أشعر بالخوف، فقد كان والدي نائم في الغرفة المجاورة. لذا بقيت في سريري أنصت ياهاهم للصوت، حتى أخذ في الارتفاع. فجريت إلى النافذة وقد قلقتني الحشود الممزوجة بالدهشة والانبهار فرأيت مجموعات من الطائرات الحربية تحمل علامة

النازي أي الصليب المعقوف وهي محرم حول أسقف المنازل. ومن أن
لآخر كانت إحداها تحفض جناحيها وتسقط من السماء كالنسر الجريح
تم تنفجر حين ترتطم بالأرض محدثة خراباً كبيراً. ومن شدة خوفي أردت
أن اجري إلى غرفة والذي ولكنني وجدت نفسي مسترساً في مكانتي.
وفجأة شعرت كأن المنزل يأكله قد انفجر وانهار ببطء حولي في كوم
من التراب والحجارة والأخشاب المحطمة.

وحين ماريل شهقة تم عن أمها. وبالرغم من سماعها القصة
كما رواها لها صاعياً بلا مبالغة، إلا أنها رسمت في مخيلتها صورة
واضحة لما حدث. وهمت قائلة:

«والدالك؟»

فرد عليها قائلاً:

«لقد قتلا... والشئ الوحيد الذي أذكره بعد ذلك هو تحيطي بين جموع
الناس وهم يسرعون في سيرهم هاربين من الدمار. وكان الطريق
مزدهجاً بعربات النقل والأشويشات وأعداد هائلة من
الدراجات بعضها عليه ركاب، وبعضها يحمل باليطاملين والمراثيب
والحفائط المحطمة وكلها تسير على الأرصفة هرباً من الطريق المزدحم
بالمرور. ولم يلحظ وجودي أحد. وبعد عجزني عن السير من شدة
التعب، تسللت إلى أحد الحقول ووقدت لأنام قليلاً.»

وبدت في عييه ومضة تعبر عن ذكرى أسعدته وبددت النظرة
الناتئة من عييه. لكنه استمر في حديثه فقل متابعاً قصته:

«صعرت لأنناول إفطاراً من الحساء الساخن المقدم إلي من وعاء كبير
كان يملئ على نار موقدة بالقرب من قدمي. وشجعني الوجوه الصماء
الباسمة على شرب الحساء وشيان شعوري بالضياح وبالفرح، لئيم

لغير الذين تقبلوني بعنائهم العظيم كواحد منهم.»

فلت ماريل صامئة عندما انتهت كلماته وأخذت تفكر في
حول ما سمعته. وشعرت بضالتها باعتبارها الشخص الذي يفضي إليه
ذلك الرجل المتعرج بسر حياته. ثم أوحى لها عقلها ألا تفرح بهذه
الثقة فهي بالنسبة له لا وجود لها، بل هي بيعت مضايقة له كما لو
كانت ذبابة على ذراعته. أما غير ذلك فهي لا شيء. وكان في إمكانه
توجيه كلامه إلى أشباح بدلاً منها. إلا أنه برعي أو بقير وعني قد
كشف عن وحدته. لقد كان قائد العجر وليس رئيسهم. لأن ذلك الجنس
الحر يخضع لسلطة شخص واحد، ولكنهم يشعرون فيها بينهم وفي قرارة
أنفسهم بأن دماء ليست من دمائهم. وهذه الحقيقة لم يبرحوا بها أبداً
بل يفضلون تجاهلها. فبالرغم من الاحتفال به واحترامه لم يكن من
بين أصدقائه الكثيرين والمعجبين به من يعتبره من أهلهم.

ثم وقف وقطى بتكاسل كما لو كان ينفي نظريتها بأنه وحيد ثم
مشى إلى الباب وكأنه ضيق وقتاً كثيراً في حديث عابر:
«أرجو أن يكون سر برك مريحاً. وإذا احتجت إلى أي شيء سأكون قريباً
منك.»

ودفعها الفضول إلى الاقتراب من النافذة بعد أن تركها وخرج.
فكان المعسكر ساكناً والاجسام الهادئة ممددة تحت الأعطية الثقيلة
داخل الحلقة المحيطة بالنار الخامدة. وسمعت نقيق بومة ارتجف لها
جسمها متربعة منها شراً. لكنها اطمأنت عندما رأت روم الطويل
ممدداً على الأرض عند نهاية السلم المؤدي إلى عريقتها. وعندما أخذت
تخلع ملابسها دارت أسئلة حائرة عديدة في ذهنها تبحث عن ردود لها.
وتأكدت وهي تدخل تحت لحافها الدافئ أنها لن تستطيع النوم. إلا أن

جنبتها أليفاً قبل أن تفكر في أحداث ذلك اليوم المشير...

واستيقظت على صوت ضحك وصراخ جموع الأطفال وهم يجرّون بين العربات، وتحت أرجل الخيل، وعلى حدود المعسكر، يرحلون ويرتعون في استمتاع ظاهر وصحة جيدة. ولم تجد أثراً لروم أو غيره من الرجال عندما خرجت من عربتها لتبحث عن ماء تغسل به وما زال النوم يداعب عينيها. إلا أنها رأت كوري التي كانت في طريقها لمغادرة المعسكر وقد غلقت دلوين في فروعها. وعندما نادت عليها مارييل، انتظرت منبسمة حتى لحقت بها وقالت لها:

«إنني ذاهبة لاجتماع ماء لغسل الملابس، ويحسن بك أن تأتي معي لأن هناك عادات يجب أن أشرحها لك لاتباعها إذا كنت ستبقين مع قبيلتنا».

فردت عليها مارييل قائلة:

«أولاً أنا بحاجة إلى الاغتسال، وبعد ذلك سأستمع بسرور لتعليقاتك».

إلا أن كوري هزت رأسها وقالت:

«بل استمعي اليها قبل الاغتسال، وإلا خالفت تعليمات القبيلة ووقعت تحت طائر عقاب مجلسها».

ووصلتا إلى النهر قبل أن تسأل مارييل المزيد من الأسئلة. وبلغت دهشتها منها عندما بدأت كوري في تقسيم النهر إلى أقسام مختلفة بخطوط وهمية. وبكل جدية شرحت لها كوري عاداتهم قائلة:

«تؤخذ مياه الشرب والطهي من أقصى شمال النهر، وتليها مياه غسل الأواني والاستحمام، وبعدها جنوباً تأتي المياه اللازمة لشرب الخيول وغسل الملابس. ويجب استعمال دلو مختلف لكل غرض من هذه

الأغراض، وإلا أصبحت المياه نجسة، ويحرم على الفجر لس أي شيء نجس».

وفي الحال غيّرت مارييل فكرتها عن الفجر وشعرت بأنهم يتسككون بشدة بالعادات والتقاليد، وأحست بالخنوع وهي تشرع في تنفيذ تعليمات كوري.

وأعجبها الشيء حافية القدمين في المياه الضحلة لملء الدلو الذي أعطتها إياه كوري. وكان للمياه بريق كالشمس، وانسابت برودهتها حول أصابع قدميها وهي تحاول أن تحافظ على توازنها فوق الحجارة المغطاة بالطحالب الخضراء في محاولة لملء دلوها من مكان بعيد...

وضحكت كوري من حركاتها وقالت لها:

«خذني حذرك يا مارييل».

ولم تتم كلماتها حتى انزلت قدماً مارييل ووقعت في البركة العظيمة ووصل الماء حتى رقبته، وسمعت صوت ضحكات تأتي من ناحية الشاطئ، بينما أخذت كوري تعاونها على الخروج وقد التصق شعرها الأشقر برأسها وجعلها تبدو كالنصي الحائف.

وشعرت كأن حلتها المبتلة تزن طناً وهي تلتف حول جسدها المنعقد من البرد. وحاولت كوري أن تغالب الضحك، أما لالا الواقعة ترقب الموقف، فكانت ضحكاتها تحمل معنى التشفي الساخر وهي تنف على الشاطئ. دون أن تحاول تقديم أية مساعدة لمارييل، وأخذت ترقب كوري أثناء محاولتها جذب مارييل من المياه. وقالت لالا وهي تضحك متشفية وقر بيديها على جسدها الذي يشقجر أنوثته:

«إن فتاة روم الأجنبية تبدو كالصبيان أكثر من ذي قبل. كم أود لو

كان روم هنا ليرى بنفسه ما أظهرته المياه. إن ملابس الرجال تخفي تحتها جسم صبي لم يكتبل نموه بعد.

وكادت المياه أن تتحول إلى بخار من شدة غضب مارييل لهذا الهجوم الوقح. فطيفاً للمقاييس الغربية يعتبر قوامها مثالياً. أما بالنسبة لقوام لالا المكتنز فتعتبر نحيلة. وألها هذا، لذلك جاء ردها عنيفاً في شكل مثل تعلسته من والدتها:

«إن الجبال لا يمكن أن يؤكل بلعقة.»

والشدة دهشتها اصططح وجه لالا بالاحمرار واستدارت بنظرة حائرة وانصرفت، وسعت كوري بجوارها وهي تنهق من الدهشة. ثم تنفخ في نوبة من الضحك وتقول:

«كيف عرفت ذلك؟ إن عيب لالا الأكبر هو جهلها بظهور أبسط الوجبات. وقد أصابها كليتك في صميم كبريائها فلا غرابة ألا يتقدم لها أحد من رجال القبيلة ليتزوجها. لقد كسبت حقاً هذه الجولة لكنني أخشى أن تزيد كليتك من طبع لالا الخنود وهو الانتقام لأقل إساءة توجه إليها.»

ثم تصحبها قائلة:

«أخبري يا عزيزتي. فقد جعلت منها عدواً.

ولما كانت خطط صوفي لم تشمل نقل أمتعة ابنة أختها معها. لذا اضطرت مارييل إلى ثمل الملابس الجاقة التي عرضتها عليها كوري لأن كل ما غلكته من ملابس كان ميثلاً على جسمها البارد. فدخلت غربة كوري وخلعت ملابسها ودلكت جسمها بمشقة خشنة حتى عادت الدماء تجري في عروقها. ثم لبست التنورة المتعددة الطبقات والبطوزة ذات الفتحة الواسعة التي أخرجتها لها كوري من

صندوق ملابسها. شعرت مارييل بملابسها الجديدة كأنها بطلة رواية موسيقية كوميدية، خاصة عندما ربطت مشبك الخزام العريض الذي جعل خصرها قطر دائرة اليد. واستدارت إليها كوري وهي ما تزال تنبش في أعماق صندوقها وقالت لها:

«هذه الملابس ثلاثك تماماً. ولن يجد روم صعوبة في تفريقك عن صبي. كما لا بد أن لالا ستعترف بهذا الآن.»

وضحكت كوري عندما احمرت وجنتا مارييل من الحجل ثم عبرت عن رضاها عندما وقعت يداها على الشيء الذي كانت تبحث عنه في الصندوق. فقالت لمارييل وقد أخرجت يدها من صندوقها بقبضة من المصاغ المصنوع من العسلات الذهبية وقالت لها:

«بهذه ستم زينتك.»

فاحتجت مارييل قائلة:

«لا أستطيع أن أخذها. تبدو سيئة وأخشى أن أفسدها.»

فتعجبت كوري وقالت بتردد: وقد أخرجتها رفض مارييل:

«إنني أقدمها لك هدية لا ترد. فمن عاداتنا تقديم أحسن ما لدينا لمن تعجب بهم.»

وقفز قلب مارييل لضخامة خطئها. بدا على كوري الاستياء مما اعتقدت أنه رفض لصداقتها. ورأت مارييل أن تهدى من مشاعر كوري الجريمة بأن تقبل الهدية المقدعة لها. بنفس الروح التي قبلتها بها صديقتها. ولما شعرت بالآثم الذي سببته لكوري، خزت على ركبتيها بجانب الفتاة واعتذرت لها قائلة:

«أسفة يا كوري... أرجو أن تسامحني. فلم أكن أفهم تقاليدكم.»

وفي الحال غيرت الابتسامة من مظهر كوري وقالت وهي تدفع

بالمصاغ إلى أبيدي ماريل:

«إذا هل تلبسيتها؟»

«أشكرك... سألبسها بكل سرور بشرط أن تضمني لي أن روبا لن يغضب لأنك أعطيتني إياها.»

لكن كوري طمأنتها قائلة:

«هل سيكون فقوراً بذلك، فتحن نتقاسم الثروات التي تأتي لنا بفضل كرم قائدنا روم. من سنوات قليلة كانت لبيكتنا من أفقر قبائل الفجر عانيتنا من الفقر والمتاعب الكثيرة، ولم يكن لنا بركة أمل في

طريقة لتغير بها حظنا العثر، لكن روم صمم على أن يبحث لنا عن مصدر للمال، ليس لنفسه بل لنا نحن عشيرته.»

ثم أتمت كلامها قائلة بفخر واعتزاز:

«والآن لدينا بظون مليئة، وأطفال أصحاء، وعربات وماشية ممتازة. إن روم رجل غني جداً، أو مليونير.»

فاستغربت ماريل لهذا النبأ. وبالرغم من أن كوري لم تذكر نوعية ثروة روم، إلا أن إشارتها إلى الثراء الكبير أدهش ماريل كثيراً فسألت صديقتها قائلة:

«إذا كان روم قد انفق كل ثروته عليكم فكيف يكون غنياً؟»

فبدت على كوري الدهشة وهي ترد قائلة:

«إن المليونير وحده هو الذي يستطيع أن ينفق مليوناً.»

قالت ذلك بمنطق بسيط حتى أن ماريل لم تحصر جواباً، ثم استطردت تقول وهي تثبت الأساور والعقود حول معصم ماريل ورقبتها:

«روبا يحصل على قسط أكبر من ثروة روم لأنه يصعبه إلى كل

مكان يذهب إليه، ويتقاسم معه متاعب العالم الغربي. فبعد أن يفي بجميع احتياجاته، يحول المبالغ المتبقية إلى قطع ذهبية للفسان ضد الحاجة والعزلة.

لم تنتعش ماريل من حب عشرة روم له واعترافيهم له بالمجمل. فإن اليتيم الخائف الذي انقطعه الفجر من بين جموع اللاجئين الهاربين قد جازأهم على صنيعهم الإنساني نحوه خير جزاء.

وتمرور ساعات النهار اعتلات ماريل ملابسها المستعارة من صديقتها، ونسيت تدريجياً أنها لم تكن في بادئ الأمر مريضة. وقضت معظم وقتها في مساعدة كوري في أعمالها. كما حاولت أن توطد علاقتها ببقية النساء. ففي بادئ الأمر كن حذرات في تعاملهن معها والاستجابة لمحاولتها التقرب منهن، إلا أن رغبته الحميدة في إقامة صداقات معهن، بالإضافة إلى محاولتها المتعرة المضحكة في التخاطب معهن بلغتهم سرعان ما أذابت التحفظ الموجود بينهما.

وعندما عاد الرجال إلى المعسكر في آخر النهار بعد يوم قضوه في المقايضة في سوق للخيل، لم يكن مستغرباً ألا يلتفت أحد لماريل في بادئ الأمر وهي بين جموع النساء التهنعات في الطهور والمرهفات بسبب مشاغبة الاطفال المحيطين بهن. فعندما تقدم روم إلى الجزء المضيء من المعسكر، لم يلاحظ ماريل بالرغم من كونها قريبة جداً منه. اقترب من النار ووقف يرقبها وهي تحرك محتويات آتية جديدة بغرفة كبيرة. وبدون أن تلاحظ وجوده مرت بأصبعها على حافة المغرفة لتعلق شيئاً من الصلصة العالقة بها. وكانت النيران المهتزة تنصف مزبناً من الرقة إلى ملايحها الدقيقة. وتضي على شعرها بريقاً مثل النخلة. أما الظلال فقد ضمت قوامها وأخفت تفاصيله بدلال يثير

الرجال. وكانت تضع الملح على الطعام عندما قال لها مازحاً:

«إذا كنت تشكرين في زي شخصية مجهولة، فهل أضمن من هي؟»

ووقعت المفارقة من بدعها في الأثناء، كما شلت المفاجأة حركتها، وأثارت

وجود الضاحك خجلاً بدد رقتها وسلب كل الرشاقة من حركاتها.

وأخيراً زاد من عرجها وخجلها بعبارة القاسية وهو يقول:

«لقد حرمت المرأة الغربية نفسها من أنوثتها بسبب كفاحها في سبيل

التحرر، لذا يجب التصك بارتداء البنتلون.»

واندلعت شرارة وانعكس ضررها في أعناق العنيتين الرماديتين

الباردين فقالت:

«هل تتكلم عن ثقة، أم هذا مجرد استنتاج؟»

فضحك واقترب منها وقال :

«لديّ عينان ولذي بعض التجارب، فإن مغالبة المرأة الفجرية مشر

مثل اصطلياد النسر. أما أنت فصيدك حين مثل صيد الغزال

الصغير.»

فقالت بعدة واعتداد:

«إنني أعرف كل شيء عن العلاقة بين الجنسين.»

«ربما... لكن ما زلت في حاجة إلى تعلم كل شيء عن الحب. فالعلاقة بين

الجنسين كلمة عملية باردة لا محل لها عندما تستخدم لوصف عملية

صهر قلبين وجسدين وفكرين معاً. لذا يجب التخلي عن كل فكرة

للتحرر إذا أردت الاندماج في الوحدة الكاملة التي تعتمدها نسلونا حقاً

لهن. فإن الرنق الخارجي الذي يرضي الرجل لا يمتنا نحن رجال الفجر.

فلا حاجة بنا لشععة بدون لهب.»

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، ونحت جنح الليل والمطر، تحركت

قافلات عربات الفجر من مكانها، وسارت في سكون وقد غطيت

خوافر الخيل بالنش، وربطت بقطع من القماش الملون، وسارت وهي

تتنجب الطرق العامة مخترقة البلاد عبر الطرق الوعرة التي لا تستطيع

السير عليها غير العربات ذات العجل الكبير. وشعرت مازييل بوخز

الضجر لأنها كانت مستريحة في عربتها الوثيرة وهي تتمتع بالدفع.

بينما جلس روم في الجزء الخارجي منها تحت المطر الشهيم وهو بحث

الخيرول على التقدم للأمام، وأحياناً كانت القافلة تبطيء في سيرها

فيضطر روم للقفز من مكانه إلى الأرض وقد غطي الطين قدميه

حتى كاحليه ليدفع العجلات المتعثرة بكثفة. وأحياناً تندفع العربة إلى

الأمام وتطيح بمازييل لتترنح بين الأواني والحلل التي تحدث بها

كدمات لم تشعر بها في بادئ الأمر. وكان شباب القبيلة متهمكين في

مساعدة المتعثرين في الرجل المكثيف.

وبعد ساعات من السفر الشاق سمعت مازييل صوتاً متكرراً

لصفارة منبشة من العربة الأولى للقافلة. وكان صوت انصفاة

مطمئناً وهي تسمعه مختلطاً بصوت وقع خوافر الخيول على الرجل.

وبصوت بكاء الأطفال، أحياناً، من العربات القريبة. وبعد ذلك مباشرة

أدهش مازييل صوت وهي تسرع في سيرها على أرض صلبة مرة

أخرى. وكانت خوافر الخيول قد فقدت النفس المربوط بها من مدة

طويلة.

وفتح باب العربة ودخل روم كما دخلت معه لفحة من الهواء

البارد. وظهرت ابتسامته العريضة وهو سعيد لانصراده على الطبيعة

القاسية. ولعت عيناه من بين خصلات شعره الأسود الغفل على جبينه،

وقال بارتياح ظاهر:

«عبرنا الحدود ودخلنا تشيكوسلوفاكيا. نزع أننا مازلنا في أرض
روسية، إلا أن آميلاً كثيرة تفصلنا عن سرجي إيفانوف، وغداً، إذا
لازمنا الحظ، ستبعد عنه أكثر».

وزادت اهتمامه إشراقاً وهو يقول:

«بعد قليل يا عزيزتي ستفترق إلى الأبد».

يا عزيزتي... لقد سبق لمارييل أن سمعت هذه العبارة الحساسة
باللغة البولندية من والدتها. لذا لم يكن مستغرباً أن تلقى تلك العبارة
صدي في قلبها. وبدت لها العربية صغيرة عندما أخذ روم يتقدم
منها. لكنها أخذت تتراجع وتبتعد عنه، وقد طغى ظله الكبير على
الحائط على ظلها الدقيق. إلا أنها شعرت بالمرح لجلجلها منه، فألقت
إليه بتحد. ومع ذلك لم تستطع إخفاء الرغبة التي ظهرت في صوتها:
«أنا أيضاً نواقة للعودة إلى وطني، فسماعتك لا تفوق سعادتي بذلك».

ومما زاد من وطأة السكون الذي ساد بينهما، صوت دقات ساعة
كبيرة معلقة في العربية، وليرة قصيرة ثلاث نظرت الواقعية السوداء
تظهرها الغامضة الرمادية. وسأها روم فجأة وكأنه يدرك لأول مرة
أنها ذات شخصية مستقلة.

«هل لديك أقارب في انكلترا».

وشعرت بغصة في حلقها وحاولت أن تفهم سر اهتمامها بها فردت:

«القرية الوحيدة هي صوفي، لكن لي أصدقاء».

«أصدقاء...؟ هل ترين أن الصداقة رابطة كافية لاشباع احتياجاتك
الشخصية؟ أو ربما لك بين هؤلاء الأصدقاء شخص خاص تودين أن
توطدين علاقتك به».

ولفت نظره اصطباغ وجنتيها بحمرة الحجل. ومما زاد من حرجها

التغيير الذي ظهر على وجهه والذي دل على أنه استبح شيئاً معيناً من
جلجلها. وتضايقت ورددت عليه قائلة:

«كلا، لا يوجد شخص معين، لكني أرجو الحصول على وظيفة جيدة.
وهي طبعاً أمنية تعتبرها لائقه بإحدى بنات جنس».

واستاءت مارييل عندما لم يظهر أي تعبير على وجهه لجلجلها.
«لا يعني ما تفعلينه بحياتك، فيمجرد وصولنا إلى النسا سيكون
من السهل تدوير أمر انتقالك إلى انكلترا، وبعد ذلك أنك إذا كنا
سنلقى ثانية».

ثم مشى نحو الباب وقال:

«حاولي أن تنامي قليلاً فسنسافر طيلة الليل. الطرقات مبهدة وستمرح
العربة في سيرها».

وكما تكلم بسرعة خرج بسرعة بدون أن يتيح لها فرصة الرد عليه
بطريقة تحفظ بها ماء وجهها.

ونامت حتى تحلل الحر جدران العربة، ثم دفعها الفضول وحاجتها
إلى الهواء النقي للخروج والانضمام إلى روم الذي ترك التعب أثره
على عينيه. وعندما رآها مر بيده على وجهه، حيث لم يتسع الوقت
لخلاصة ذقنه، وعبرت نظرتهم عن اعتذاره لظهوره، بينما صعدت
مارييل على المقعد الخشبي للعربة وجلست بجواره، وكانت القافلة
تسير ببطء صاعدة التل. وكان المطر قد غسل الأرض ونظفها، ولعت
أشعة الشمس على كل ورقة في الأشجار. وكانت جداول المياه تنساب
إلى أسفل التل بحيوية براققة. ولم تعرف مارييل سبباً لشعورها
بالحيوية والسعادة وهي تجلس على المقعد المرتفع وتترنح من حركة
العربة وتشم عير الهواء المشبع بشذى الزهور، وتستمتع بصحبة روم.

بصورة لم يسبق أن شعرت بها من قبل.

أما روم نفسه فبدت عليه السعادة وهو يدخن غليوته، ويدعها تشاركه صحبته بدون أن يوجه إليها نقداً أو تهكماً كعادته. وفيجأة مدت مارييل ذراعها وكانت تحتضن الطبيعة الجميلة بأكلها وقالت:

«ها لها من طريقة حياة ممتعة. كيف تطيق أن تترك كل هذا الجمال لتدخل النوادي الليلية المظلمة وتعيش في المدن المكتظة بالناس؟»
فعض على ميسم غليوته بأسنانه وقال:

«تعلمت من الفجر أن أعيش في الحاضر وليس في المستقبل. فكل الذكريات والأمانى والرغبات والتوافع الخاصة بالغد، كلها متأصلة في الحاضر. فبدون الآن لا يوجد ما قبل، كما لا يوجد ما بعده.

وتأملت مارييل في معنى كلامه وفلسفته، واستعادتها لنفسها وحدت الله على إباحة الفرصة لها لكي تشاركه لحظة الحاضر التي كانت تعيش فيها، حتى ولو لم يكن لها مستقبل.

وفيجأة سمعت صوت صفارة مرحة. انتصبت لها أذان الخيول وقردت ظهور السائقين المنقوسة من التعب. وكان موجة منشطة سرت في القافلة بأمرها. وقف سائق العربات الأولى أمام متعده وأصبر صيحة الفرح وهو يدفع بجواده فوق قمة التل. وحذا حذوه بقية الرجال.

وترددت في الجو أنشيد الطيور المختلفة بأصوات العجالات وحوافر الخيول. ورغم خوفها شعرت مارييل بالسعادة وثبتت بالعربة وهي تتقدم بسرعة وثقل بشدة وكأنها ستقلب. وكانت الأبخرة تنصاعد من أجساد الخيول المنصبية بالعرق. إلا أن صوت صليل السلاسل والآواني كان يزيد من الشعور بالسرعة. هكذا تددت القافلة فوق

قمة التل لم هيئت والمحجيت نحو دائرة من غربات الفجر المعسكرة من قبل في ذلك المكان. وجرت النساء والأطفال إلى الأمام، وهم يتعرفون على الشخصيات المألوفة لديهم، ويتبادلون معهم التحيات قبل أن تستقر القافلة الجديدة في مكانها. وبينما كانت المجسرة تزدحمان، تبيت مارييل تشابهاً واضحاً بين أفراد الأسر، فحيا القريب قريبه، والأخ أخاه بروح مرحة سعيدة. وبسرعة وضعت أنية الطهي على النار التي أعيد إضرامها بينما تولى الشباب أمر الخيول. وتباعد الرجال الأخيار وأخذت النساء بإعداد طعام الإفطار للضيوف.

وتسلت مارييل داخل العربة ولم يلتفت إليها أحد، إذ لم يكن لها مكان أو مجال في هذا التلاقي بين القيلتين شعرت بالهجل من مقابلة الأغراب ولم ترغب أن تفرض نفسها عليهم. فجلست وحيدة أمام النافذة وأخذت تسلي نفسها بالتخمين عن القرابة الموجودة بين الأفراد.

وسرعان ما فترت تسليتها وانتابها كآبة طاغية. تذكرت خالتها وكيف افترقت عنها فجأة وفي ظروف غير ودية. فشعرت لأول مرة بمرارة الوحدة التي تتاب الياسمين الذين لا قريب لهم. فتصدت على ممريرها وأغمضت عينها. كما تعمدت شغل تفكيرها بعيداً عن الأفكار التي تدور حول الأسرة والأصدقاء. إلا أن الحزن شكن منها، ولم تستطع مسح آثار دموعها من فوق خديها في الوقت المناسب عندما سمعت صوتاً داخل العربة. نظر إليها روم وهي تتظاهر بالشاوب ثم تنصلي وكأنها استيقظت لثوبها من النوم. ورغم أن قمة لم يتم عن أية مشاعر إلا أنه عندما وضع يده على كتفها وأشار إليها أن تتبعه، تبعته بدون أي تعليق أو سؤال.

في تلك الليلة أقامت القبيلة المقيمة حفل سمر للقبيلة الزائرة فجلس الرجال حول النار على الطريقة الفجرية يتسامرون بحرية وانطلاق واستمتاع ودارت النساء حولهم يقدمن من الطعام لاشباع الشهية التي شحذها الاستمتاع بجمال الصحبة، وحلاوة الحديث. وبعد أن أوى الأطفال إلى فراشهم انضمت النساء لجلس الرجال حول النار لسماع الأغاني التي تحكي تاريخ العجر يشدها تروكا وهو رجل مسن، محترم من رجال القبيلة كلها. وكما لو كان ذلك حفها، وجدت مارييل أنهم أجلسوها بجوار روم الذي راح يترجم لها الكلمات المنشقة. وقد قرب منه منها وأخذ يمسى بالكلمات في أذنها. وأعجبت مارييل بشاعرية كلمات الأغاني، وكلما سمعت المزيد منها زادت تشويقها بما تحمله من مشاعر عاطفية جياشة. وعندما انتهى الغناء كان المجهود قد أضنى الرجل المسن فجلس متكئاً على سواعد أولاده وقد غارت قناره، وساد صمت رهيب بين المجالسين كما لو كان الوقت توقف عن سيره تحت تأثير سحر الأغاني وجمالها.

ثم بدأ روم يذنب بنغم ناقص من أنغام الفجر، الأمر الذي بدد التوتر والوجوم واستولى إيقاع النغم على الشباب فاضتركوا تلقائياً في ترويد. أما الفتيات فقد أخذن يصفقن على الإيقاع ووثبت إحداهن من وسط الدائرة متأثرة بالنغم وأخذت ترقص وتنبور في مرح وتشوة، واتسعت عينا مارييل عندما ادركت أنها لالا وتضاربت في نفسها مشاعر الكراهية والاعجاب معاً عندما بدأت الفتاة تلف وتنبور أمام المتفرجين. وكان تعبير وجهها ينم عن الكبرياء وقد بدا التهكم في عينيها وهي تدق الأرض بقدميها الصغيرتين العصيتين، وشجعها تصفيق الأيدي على الاسراع في حركة قدميها وهي تلف حول الدائرة

وقد انفردت طيات ملابسها بينما كانت نظراتها تجول بين أوجه الحاضرين بحثاً عن شخص معين. ولدهشة الجميع توقفت فجأة أمام روم وبدأت تقوم بحركات متأوجة بطيئة متحدية إياه أن يرفض الدعوة الصريحة التي كانت تقدمها بكل وضوح.

وشعرت مارييل وهي بجواره بتوتره وبالفضب المتصاعد من قرارة نفسه. وبعد فترة من التردد قفز إلى الحلية لينضم إلى لالا في الرقص. وعندما أحاط بيده خصرها هلل الحاضرون وصفروا معبرين عن رضاهم. ثم انضم إليها اثنان من الراقصين وثلاهما آخران حتى أصبح كل ما تراه مارييل من روم هو وجهه الضاحك كلها ظهر لها من بين الراقصين. وكان الرقص بالنسبة لهم جميعاً تحدياً شخصياً يتبارون فيه فيما بينهم. وقد تقدم شباب الفجر ودخلوا الحلية وأخذوا يدقون على ركبهم ويصكون بكعوب أقدامهم معاً في تناوب رتيب على الأرض وهم يدورون بزميلاتهم بحماس شديد بحث الصيحات المرحية من أفواه الفتيات.

وكانت مارييل سابعة في تأملاتها حتى أنها فوجئت بصوت هادي يقول لها:

«أثقل الفتاة الأجنبية مشاركتي الرقص»

ورفعت رأسها ورأت شاباً جاداً لم يخف صوته اللطيف جيريته التي حاول إخفاءها، لكنها ظهرت في عينيها الجريبتين. وقلت منها الألفاظ قبل أن تتحج لنفسها وقتاً للتفكير: «لا أستطيع...»

وتابعت نظراته نظراتها التي كانت توجهها نحو روم، وسأله الشاب بتهكم وجراً:

«لا تستطيعين؟ أو لا تخرجين؟»

وأسمعها الغضب، الذي كانت تحاول كبته، وأخذ النار التي أراد أنارتها بها. وشعرت بدون سبب تعرفه بالاهانة أمام جميع أهل المعسكر عندما هجر روم مجلسها إكراما للالا والرقص معها. وقد أثبت تلميح الشاب الفجري صحة شكوكها لذلك استدارت بهصرارة لم يترقبها في بنات جنسها واستجابت لدعوته، مما بعث بالابتسامة المشرقة إلى وجهه:

«نعم، سأرقص معك.»

«اسمي كاليا.»

«شكرا يا كاليا... هيا بنا.»

وأعجبها طريقة رقص العنبر حيث يسلك الراقص بالرافضة بشدة حتى لا تستطيع التنفس، ويلترب وجهه من وجهها حتى تضطر إلى تفويس ظهرها إلى الخلف محاولة الأفلات من قبضته. ومما زاد في حجة ضيقها إليه الازدحام الشديد من حوله. وقد طال الرقص بلا انقطاع. وبعد حوالي نصف ساعة من المرح ثقت لو أمكنها أن تصيح بأي شيء، لتتخلص من قبضة مراقصته وعواطفه الجياشة. وسنحت لها تلك الفرصة عندما اصطدم كاليا براقصين آخرين. فأرتطممت أقدام الراقصين المرعين بكاحل مارييل التي صرخت من الألم وانهارت في تراخ. وارتقت إليه وهي تقاوم موجات من الألم الشديد.

ولسم كاليا الراقصين اللذين ارتطبا بها بكللمات لاذعة، وعندما التفت إلى مارييل للعناية بإصابتها هجم الراقص، الذي تسبب في الحادث على كاليا، مما اضطره إلى ترك مارييل قبل أن يتراجع من أثر اللطمة التي أطاحت به مرثطاً ببقية الراقصين. وسرعان ما أثار

الغضب الذي أشعله كثرة الشراب هياج الجميع وانضم الرجال على بعضهم، ولحيز كل منهم لأحد المنشاجرين مما دعا النساء إلى الصراخ والجري طلباً للاحتواء في مكان أمين، وأطاح الرجال بعضهم بعضاً في معركة استخدمت فيها الأواني والصحون وكل ما توصل إليه المنشاجرون. كما استخدمت فيها الأيدي والأرجل والرؤوس كالأغنام المتناطعة، فكان منظراً مفرزاً للاريبيل، فتحاملت على نفسها وبجهد جهيد وصلت إلى إحدى العربات وقد أغضت عينيها حتى لا ترى مجون البرجية.

وسمعت صوت صفارة يعلو فوق صوت المعركة، إلا أن أحداً لم يلتفت إليها. وتلتها صفارة أخرى طويلة تخللت الجلبة الشاملة التي عمت الجموع المحتشدة، ونجحت في تهدئة المشاعر الملتبهة والمخد من اللكمات المتبادلة. وعندما سمعت صوت روم من بين الأصوات التي سمعتها عن بعد، فتحت عينيها ورأت قائمته الطويلة تسيطر على جموع الرجال، وخرجت من فمه كالسيف كلمات التأنيب والتعنيف لتتهوهم وتصرفهم الطائش معبراً عن احتقاره لم بكللمات بعثت حمرة الخجل إلى وجوههم وجعلتهم يستديرون ليتجهوا نحو عرباتهم. وعندئذ رفعت نبرات صوت لالا الواضح رؤوسهم المنحية. كانت كلماتها عنيفة وعيناها تمثلنين بالكرهية. مدت لالا أصبع الاتهام نحو مارييل وصرخت:

«إنها هي تلك المرأة الأجنبية التي أثارنا المتاعب، إننا لم نحيد وجودها بيننا من هادئ الأمر لكنك أنت يا روم الذي صممت على بقائها، لذلك يجب أن تنقسم معها اللوم وتال نصيبك منه.»

ثم استدارت نحو الجموع الغاضبة وقالت وهي تعتمد الشرة

«يجب إبعاد تأثير هذه المرأة السيئة عن قبيلتنا، فإذا لم يطردها روم
يورو و رؤساء القبيلة الذين وافقوا على وجودها. يجب أن نتقدم
لمجلس القبيلة ليبدل رأي العدالة. هل توافقون كلكم على ذلك؟»
ووصل صوت هدير المرافقة إلى أفتي مارييل وهي ترتعد وقد
استندت إلى جانب العربة. ترامي إليها الصوت مخيفاً مثل صوت حشد
تجميع حول المفصلة متعطشاً للانتقام...

٤ - مفاجأة المحاكمة...

شرح روم لمارييل بشيرم وألفاظ رتيبة، التشكيل القانوني
لمجلس القبيلة القضائي الذي يرأسه عدد من القضاة اكتسبت
حكمتهم على مر السنين مركزاً أسطورياً. وقد ساعدت قراراتهم غير
أجيال لا تحصى على كبح جماح المجموعات الأكثرى من الفجر التي
تفرض إرادتها على المجموعات الأضعف. ولولا احترام الفجر لمجلسهم
القضائي لمطوا إلى مستوى مجتمع يسوده الفساد. وأدركت مارييل
من كلامه مدى استيائه من الموقف الذي وضعته فيه الفتاة لا لا
بندائها الذي أثارته به المشاعر، كان شيئاً مهيناً لكرامته وكبريائه أن
يقف هكذا منها.

وكانت مارييل نروح ونحيي في عربتها وهي تشعر بنظراته
تتابعها بغضب واستياء. ولما لم تعد تحمل الصمت بينها قالت له
مستعطفة:

«أنا لم أخطيء أبداً... فكيف لي أن أعرف أن مراقبة كاليا ستكون
لها هذه الأصداء؟ وفي أي حال كرهت كل دقيقة من الرقص معه ولو
أنك لم تتركني وحدي كما فعلت، لما حدث شيء من هذا».

وكان روم يستند إلى الباب بدون اهتمام بها. لكن اتهامها إياه
بإيهاها أشعل مشاعره وجعله يتصرف بعنف، فبخفة حركته المعهودة
تقدم نحوها واقترب منها قاضطرت أن تشيح بوجهها بعيداً عنه
وانتظرت هروب العاصفة، واثقة أنها أمدته بالعذر الذي كان يبحث
عنه ليطردها بكلهاته اللازمة. إلا أنه لم ينطق بكلمة. بدلاً من ثورته

بذء الجو المتوتر بينهما بانتماده عنها ليحب لنفسه شيئاً من الشراب؛
جلس على السرير واستند على منكبيه ليشرب بقلذء واضح. وبعد أن
انتهى من الشراب أذهلها باعترافه قائلاً:

وأنت على حق، وضعتك تحت حمايتي ونسيت وأجبي تحوكم ونحو
رفاقي، لذا أستحق العقاب، لكن الله وحده يعلم كم سيكلفني
تصحيح وضعي في عيون عشيرتي واسترداد مكاني بينهم.

ثم عبر عن غضبه وضيقه بإلقاء الكأس من يده على الأرض
فتحولت إلى قطع صغيرة تبعثرت في جميع أرجاء العربة. فأنبأوت
مارييل وأرقت على السرير، وقد خانتها شجاعته. بينما صفق
روم الباب وراءه خارجاً من العربة تاركاً إياها ترتعد وكلماته
القامضة تقول في ذهنها: ترى ما هو العقاب الذي ينتظره من هذه
القيلة المضحجة؟ وجالت بخاطرها أهوال كثيرة لكنها استبعدتها
باعتبارها أوهاماً لا أكثر. ولكنها لم تستطع أن تحو ذكرى ثورته
عليها. وأوحى لها غريزتها أن هناك كازنة قد تسببت في القلق الذي
أبداء روم بورو، وهو الشخص الذي يطلق عليه الفجر القسا اسم
الرجل العظيم.

ولعدة أيام، وبينما القافلة تسير ظل الحادث يراود ذهن مارييل رغم
محاولة روم تفاديه. كان القلق يلازمها طيلة الوقت ويمنعها من
استيعاب شبكة اتصالات الفجر. فلي كل نقطة من الطريق توجد
إشارات عديدة تركها الفجر الذين مروا قبلهم. كما كانت هناك قطع
من الفهاش الملون معلقة على غصون الأشجار لترشد القوافل التي
تأتي بعدها.

ويدلاً من أن تخرج القافلة عن الطريق كما توقعت مارييل، تقدم

الركب ببطء وثبات وانضمت إليه عربات أخرى عند مفترق الطرق
حتى امتد طابور العربات إلى مسافة عدة أميال. ولدهشتها اكتشفت
أن الاتصال التليفوني الحضاري، إجراء يقو الفجر، أما الأغراب من
الأصدقاء فاستخدمهم الفجر كنقاط للاتصال. وكانت الرسائل الهاتفية
والبريدية من شتى البلاد ترسل إليهم ويقومون هم بتوصيلها إلى
الفجر. وعلمت مارييل أن لروم اتصالاته الشخصية، شأنه في
ذلك شأن أعضاء القبائل الأخرى. ومقابل هذه الخدمات كانت نقاط
الاتصال هذه تنح ولاء، خاصاً لا يستمع به إلا القليلون.

وشعرت مارييل أن المجلس القضائي يزداد أهمية كلما اقتربت
القافلة المزاحمة من مكان تجمعها مع غيرها. وكان الجميع يلتزمون
الصمت في حضورها وحضور روم، ثم يسمعون هامسين فيما بينهم
بأصوات خافتة عندما يكونان بعيدين عن سمعهم. ولم يعلق روم
على تغيير معاملتهم، كما لم يبد اهتماماً بذلك. ولكن عندما انطوت
الأميال تحت عجلات القافلة، ظهرت المראה على ملامح وجهه وجاءت
الكلمات التي كان يوجهها إليها مقتضبة حتى أنها نمت، وعينها
تدمعان، أن تصل سريعاً إلى نهاية رحلتها. فكلما اقتربت من النهاية
زادت راحتها. وعندما لمحت في الأفق تجمعاً كبيراً من القوافل، لم تشعر
بأي خوف، بل شعرت براحة جارية تلمسها بأن محنتها ستنتهي قريباً،
إما بالخير أو بالشر.

وكان مقر المعسكر الجديد واسعاً ومغطى للقوافل عديدة مبعثرة على
مساحة شاسعة، ورأت شيئاً يدفعون بعربات الأمتعة وهي تهتز عينا
ويساراً محملة بالوزن التي تكفي لمدة طويلة. وحش الأطفال كانوا
منهمكين في جمع الحطب اللازم لإيقاد النار. ودخلت كوري العربة في

اللحظة التي استدارت فيها مارييل مبتعدة عن النافذة. وقد تعبت من التدقيق في الظلال الغامضة التي تتحرك في ضوء النار البعيد. فبعد وصول النافذة بقليل كان روم قد اختفى مؤكداً عليها قبل انصرافه بقوله:

«أبقي داخل العربة حتى عودتي، فاختلافك عن نظر القبيلة أفضل لك حتى تنتهي المحاكمة».

وكان المفروض أن تغضب من معاملتها كسجينة، إلا أن تلكمها كان مشوشاً حتى أن أوامره المشددة لم تثر فيها شيئاً غير الازدعان وذلك بإقامة من رأسها. وجاءت إليها كوري تحمل بطيخة كبيرة وقالت لها:

«أتيت لك بهدية».

وكانت تحاول أن تبدو عادية مشرحة الصدر، إلا أن القلق تغلب عليها وبدأ في عينها. ومع ذلك أخذت تقطع البطيخة بسكين حادة. وتقسّم عليها الأحمر الذي تتخلله اليلور السرداء اللامعة إلى قطع صغيرة. وعندما قدمت لها كوري قطعة لتغريها على أكلها قالت لها:

«لا أشعر بالجوع».

وفعلماً رفضت قطعة البطيخ التي قدمتها كوري التي نسبت أمر الفاكهة وناشدت مارييل قائلة:

«لا تخزني هكذا يا مارييل، فليست القبيلة كلها هكذا. فهناك كثيرون مثلي ومثل روبا يعلمون بفكرهم الصائب أن الحق هو الدافع لاتهامات لالا. فقد سبق أن نهضت إلى أن لالا هي عنود اللدود».

وظهر الأثم على مارييل وهي تحبب هامة.

«بالنسبة إليّ، لا أهتم بأمر القبيلة، لكني لا أريد لروم أن يتألم، فإذا قرر المجلس القضائي أن يسلمني إلى سيرجي إيفانوف فإنني لن أعترض على قراره أو أشكو منه طالما سيقع العقاب عليّ أنا وحدي. لكن ماذا سيعلمون بروم يا كوري؟»

قالت ذلك وعيناها تعبران عن كل معاني الحزن. وعندما أخذت في البكاء طوّقتها كوري بذراعيها محاولة تهدئتها وقالت لها:

«إن رجال المجلس قضاة عادلون، فلا تخافي من حكمهم كما أن روم معروف ومحترم بين عشائر الفجر بحيث لن تؤثر فيه اتهامات لالا وأمثالها. بل ستزول عليه برداً وسلاماً. ولنسوه الحق أن روم قد أعلن أنه ولي أمرك، وحسب تقاليدنا يعتبر هو المسؤول عن تصرفاتك. ولا بد سيقدر للمجلس العبد الذي أخذه على عاتقه».

وكان لكلمات كوري التي قالتها بشقة وإيمان وقع حسن في نفس مارييل التي توقفت عن البكاء وقالت لكوري:

«أرجو أن تكوني على حق في تأكيداتك. فحتى لو جاء حكم المحكمة حيناً فهل سيفصح روم عني؟»

وظافت إتهامة على فم كوري عندما قامت لتصرف وقالت:

«إذا كان شعوره مثل شعورك فلن يكون عفوه مشكلة على الإطلاق».

فرددت مارييل كلامها بهدنة قائلة:

«... شعوره مثل شعوري؟»

مشت كوري نحو الباب وقالت تداعبها:

«وطبعاً... لا بد أنك تخمين ذلك الذي يسبب لك الغضب، كما يسبب لك البكاء».

واجتمع مجلس القبيلة القضائي بعد ظهر اليوم التالي. مبتعداً عن

جموع الغجر الذين عبروا أنيالا كثيرة لحل مشاكلهم. وزادت رهبة المرقف عندما اتخذ القضاة أماكنهم في نصف دائرة وعقدوا جلستهم بوقار لكن بلا خيلاء. وانتظرت مارييل وروم حتى يأتي دور قضيتهم في جدول أعمال المجلس. وكانت هناك عدة شكاوى مقدمة للنظر فيها قبل قضيتها. وقد أجل المجلس بعضها بينما بث في الأخرى بطريقة أرضت أصحابها. وبعد ساعة كاملة من عذاب لا يحصل، سمعت اسمها ينادى عليه. ومن لففتها بدأت تتقدم بسرعة نحو أعضاء المجلس إلا أن روم أمسكها من ذراعها مشيراً بحركة من رأسه إلى أن لا مائلة أمام القضاة. وقد أخذت تعرض قضيتها بطلاقة فائقة وهي ترمي أعضاء المجلس بسهام لفظها فتتالك معبرة عن تهور روم ومعارضتها له في فرض فتاة اجنبية ذات تأثير سيء على أفراد القبيلة. أخذ قلب مارييل يبدق بشدة عندما شعرت أن توسلات لالا قد لانت عطفاً من مستمعيها.

ولم يجرؤ مارييل على النظر إلى روم. فتمتد سمعت تعليق كوري. أصبحت أية كلمة عادية أو أية حركة تصدر منها تعطيها شهوراً بالهتاج. يحول كل اتصال بينها إلى سكون مطبق. ترى ماذا كانت كوري تعني بكلامها؟ هذا هو مدار في خلدها وهي تسمع صوت لالا. لقد أغضبها روم مراراً في مناسبات عدة. أما أن يكون السبب في دموعها فهذا مالم تصدقه أبداً.

ولطم عليها روم افكارها قائلاً:

«إنهم ينتظرون، وأنت لتفترين أخرج الأوقات للاسترسال في أحلام اليقظة التي تنتابك أحياناً».

ودعشت لكلماته واصطبغت وجهها باللون الأحمر. وعندما سارت

خلفه وهي تتعثر في خطاها عبر المسافة المغطاة بالأعشاب بدا لها أعضاء المحكمة وكأنهم شرسون مثل حد السيف.

وواجه روم القضاة بكبرياء وشمم وهو يبدي استيائه من الاجراءات التي يتخذها المجلس. وعندما أخذ أعضاء القضاة الصامتون ينظرون إلى مارييل بنظرات فاحصة، انثرت من روم طلباً للحماية من العداء الذي شعرت به من جميع المحيطين بها ووجه أكبر أعضاء المحكمة سناً كلامه إلى روم قائلاً:

«لقد سمعنا من مجلس قبيلتكم السبب الذي دعى لقيول الفتاة معكم ونحن موافقون على قرارهم».

فتفتت مارييل الصعداء، إلا أنها دهشت عندما استأنف كلامه قائلاً:

«إننا جميعاً ندين للرفيقة صوفي بالولاء ولا يمكن إغفال أي طلب تقدم به، ولكن علينا في الوقت نفسه مراعاة صالح القبيلة. لذلك يجب، قبل أن تصدر حكمنا يا روم أن نتأكد من أنه لن يسمع إطلاقاً للفتاة التي تحت رعايتك بأن تفلت من رقابتك ثانية».

وسعل روم قبل أن يجيب إلا أن مارييل أوقفته. فبهنتين رعايتين كلهما جديدة. نظرت إلى هيئة المحكمة وقالت لهم مؤكدة موقفها:

«مأعدكم ألا أفعل شيئاً بعد الآن وأن أطيح أي أمر يصدر إليّ بشرط أن...»

فهر أن روم نهىها بعنف وأسكنها. أغرس كلماتها على لسانها. وبدعشة حلفت في وجهه الفاضل وأخذت تشك في نفسها خشية أن تكون قد التفتت ذنباً جديداً. وسعت همهمة من الغجر أكدت محاولتها

حتى قبل أن يقول لها روم من بين أستاذة الطبقة من الفيلسوف
ولا يوجه الكلام المباشر للمحكمة إلا عن طريق الرجال، وإذا أرادت
امرأة الكلام يجب أن يكون ذلك عن طريق وسيطه.

فهاها شخامة جريتها وقالت بخوف:

«إنني أسفة... فقد فكرت...»

فقاطعتها روم قائلاً:

«لا تفكري ولا تتكلمي ولا عني تتحركي».

وشعرت مارييل بالمهانة وهي تلف ساكنة لتستمع إليه وهو
يعتذر نيابة عنها، ويجهد جهيد، ويعين مسبلتين بدت ذليلة بحيث
هدأت من روع القضاة. ووجه روم كلامه للمحكمة.

«إنني أطلب سياحكم بالنسبة لتصرف الفتاة التي تحت وصايتي،
فهي إلى جانب جهلها بعاداتنا، عنيدة وتعند بما تعتبره تصرفاً متحرراً».

فلعلت المحكمة لفكرة تطلع المرأة إلى الحرية، واغتالت مارييل
عندما تبذرت دهشتهم ويات على شفاههم ابتسامات التعجب
والاستهزاء. وشعرت أن نظرات الاستهجان لن يحميها عن الدفاع عن
موقفها... وكادت فعلاً أن تتكلم لو لم يلحظ روم وجهها للمتجهم
ويقرر أن يتدخل في الأمر. مد يده وضغطها على ذراعها مسياً لها
ألاماً مبرحة جعلت الدموع تظفر إلى عينيها، لكنه أرغمها على الطاعة
بتصرفه هذا، ولم يترك ذراعها إلا بعد أن هزت رأسها علامة على
الاستسلام.

وبنوا انتباه إلى تضارب إرادة كل من مارييل و روم. أخذ
للحلفون في التشاور وهو ينظرون حولهم من أن لاخر كما لو كانوا
يستلهمون الاطستان إلى قرارهم. وكان روم يرقب مارييل

باهتمام على فمه وهما في انتظار حكم المحكمة. ولاحظت مارييل
أن روم كان يشعر في تلك اللحظة بارتياح لم يشعر به طيلة اليوم.
واستشفت من ذلك أن الأمور تسير سيراً حسناً، وحدت الله إنه لن
يخاطر إلى تقديم أية تصحية بسبب تصرفها كما كان يتوقع. وبعد
كثير من الدلالة وتبادل الآراء الطامسة رفع أكبر القضاة سناً رأسه.
وشعرت مارييل بتوتر أعصاب روم والرجل ينظر إليه ملياً.
ولسب لم تفهمه، احست بأن الرجل الكهل كان متعاطفاً مع روم
عندما قال موجهاً كلامه إليه:

«يوجد تصرف واحد بينك شكوك أفراد قبيلتك في قدرتك السيطرة على
هذه المرأة، فهل تقبل الموافقة على هذا التصرف؟»

ولم يحرك روم ساكناً، إلا أن اضطراب نفسه كان دليلاً على
خوفه. ولفترة وجيزة جال بعينه في وجه مارييل الذي علته الدهشة
وخرج الرد متعثراً من بين شفتيه:

«نعم أوافق».

وساد المرح بين جموع الناس مثلها يعصف الريح بأشجار الغابة.
ولكن أحداً لم ينطق حرفاً.

«الفتاة... هل توافق على ذلك؟»

والجبهات الأظفار نحو مارييل وهي تحاول أن تفهم معنى السؤال
الغامض. ترى ما هو الشيء الذي يطلبون موافقتها عليه؟ واقترب
الناس منها وهم يتوقفون إلى سماع ردها. واتضح لها أن هناك قراراً يجب
أن تتخذه. وقد فرض عليها فرضاً. ولم تعرف الشيء الذي تتعهد بأن
تلتزم به، لكنها شعرت بواجبها نحو روم. فإذا كانت هي السبب في
المأزق الذي وضعته فيه. وإذا كانت تريد أن تساعد فليس أمامها إلا

أن تبعه. لذا قالت موجهة كليتها للهواء احتراماً «ليروتوكول» عدم توجيه كلام المرأة إلى المحكمة مباشرة.
«نعم أوافق».

وفجأة شعرت كأن السماء قد انتشت من أثر هدير الحتاف الذي خرج من حناجر مئات الواقفين حولها.

ومنذ تلك اللحظة لم تفهم مارييل شيئاً مما حدث حولها. أحست بأنها جزء من تشيلية صامتة. حركة كثيرة ولكن كلمات قليلة. واصطف نصف أعضاء المحكمة بجوارها، بينما انضم الياقون إلى روم. ثم بدأت عملية المقايضة. قدم مؤيدو روم العملات الذهبية التي رفضها مؤيدوها بازداراء. وأعيد تقديم مزيد من العملات التي قبلها فريقها لكنه عاد ورفضها باعتبارها غير كافية. ودار الجدل حول المبلغ المقدم، وهل يليق بها. وكانت، وهي مصاطة بمزيد، تحاول أن تلفت نظر روم إليها، لكنه إما كان منهكاً في اللعبة التي تدور حولها، أو كان يعتمد عدم النظر إليها.

وأخيراً انتهت المقايضة وقدم أحد الحاضرين زجاجة من الشراب المعتق إلى روم، الذي شرب منها بنهم حتى نصفها. وعندما اقترب من مارييل شعرت بشيء من الخوف، إلا أن يديه كانتا حائيتين عندما قدم لها الزجاجة. وأفهمها أن عليها أن تشرب هي أيضاً. وعندما انسحب الشراب في حلقها سعلت ثم شعرت كأن ناراً تحرق كل شريان فيها وتقلوها بوهج ساخن. وفجأة هتف الجمهور، وانحنى روم ورفعها بين ذراعيه. وتلكتها الدعشة لسرعة تصرفه، إلا أن تأثير الشراب منعها من المقاومة عندما تقدم بها إلى باب عربتها يتبعها جموع الفجر وهم يغنون. وعندما دفع الباب بقدمه ودخل العربة لم يحتاج. ولكن

عندما خرج الجمهور الضاحك وتركها بمفردها في فراغ من السكون بدأت تساورها الشكوك والخاوف.

وأترظا روم على السرير. وعندما بقي معها بدلاً من أن ينصرف، وأخذ ينظر إليها بدأت ترتعد، لكنه ضحك منها بلا رحمة ثم مد يده ليداعب كتفها العاري الذي كشف انحسار البلوزة عنه. وابتعدت عنه غير مرجحة بداعبته، بينما أخذ الدم يتجمد في عروقها، وتوسلت إليه قائلة:

«أرجوك ان تنصرف».

«ماذا! وأخيب ظن جميع أصدقائي فينا؟»

«تخيب ظنهم...؟ إني لا أفهم شيئاً مما تقول...»

فأقترب منها أكثر وقال متحمساً:

«لا... بالطبع لا... كيف تستطيعين أن تفهمي؟»

ثم تابع ساخراً بعينين متفتحتين كالنجم المشتعل:

«لقد اشتركنا لقونا في عرس على الطريقة العجورية... فإليك يا زوجتي

زوجك الجديد...»

كانت مارييل تحلق في روم، بعينين شرستين لا تصدقان شيئاً. عندما دخلت كوري إلى العربة وهي تحمل ثوباً من الساتان الأبيض ودفعت بروم نحو الباب وهي تداعيه قائلة:
«أفهم سبب تلهفك، لكنك تعلم أن العروس دائماً تتمتع، ويجب أن تصبر وتواصل لتأسرها».

وبعد أن حيأها روم مستسلماً وخرج، التفت كوري إلى وجه مارييل الساحب وعينها الخائفتين وسحبتهما من السرير لثرفها على قدميها قائلة لها:

«من الأفضل أن يبدو عليك الخوف، وتكفي أفراد القبيلة نظرة واحدة إليك ليعرفوا أنك عذراء تهاب زوجها الجديد».

زوجها! لقد وُخِزَت الكلمة كيائها وحواسها وأعادتها إلى صوابها، لكنها استدارت بحدّة نحو كوري قائلة:

«إنه ليس زوجي، خذعوني وجعلوني أشرك في تشيلية لا تخصني ولا تعني لي شيئاً ولست ملتزمة به».

«لكنك وافقت عليها وقد سمعتك بأذني».

قالت ذلك كوري مترددة وقد بان عليها الغضب.

«إن السؤال لم يحدد لي، ولم أعرف الشيء الذي وافقت عليه، فكيف لي أن أتنبأ أن المقصود هو الزواج، في حين أنني لم ألتق ظلياً للزواج أو حتى اهتماماً من الرجل المشترك معي في هذا الموضوع؟ فالوقوف إذاً أنه من أن يستحق البحث والجدال».

وثققت مارييل من كوري أن يجادلها أو تطلب منها الالتزام بحكم المحكمة، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك. وسرعان ما قالت محاولة أن تهدى من ثوبة مارييل:

«نحن نساء الفجر لا نحاول أزواجنا مغالفتنا وكسب ودنا إلا بعد الزواج. ولا يحق للرجل أن يتقدم مباشرة لطلب يد الفتاة التي اختارها، بل عليه أن ينتظر حتى تنفق أسرته وأسرته على مبلغ معين يدفع مقابل الزواج، لذلك اضطرت المحكمة أن تتدخل في حالتكما. بما أنه ليس روم ولا لك أسرة أو أقارب يقررون مصيركما، انضم أعضاء المحكمة إلى فريقين، أحدهما يحدد تمن العروس والأخر يحاول أن يخفض الثمن. وقد دفع فيك ثمناً غالياً بالرغم من أنك غنيمة، فإن روم مدين لك بمبلغ كبير لكسب ودك».

وسألته مارييل بهانة:

«أنتين أنهن لشرورتي؟ وهل تتوقعين أن أعتبر تبادل العملات والمشاركة في شرب زجاجة شراب إجراءً قانونياً ملزماً للزواج؟»

ومالت برأسها في كبرياء واستطردت تقول:

«إنني فتاة غريبة متعلمة يا كوري، وعندما أتزوج سيكون ذلك من رجل يحترم احتياجاتي الفكرية والجسدية. وبالتأكيد لن أقبل أن أباع مثل السلعة التي تعرض للبيع في المحال التجارية».

فهزت كوري كتفيها وانزلق منها الثوب الحريري الذي كانت تحمله إلى الأرض.

«فأت أوان الاعتراض، فإن الجزء الأهم من الزواج قد تم فعلاً. فأنت الآن ملك لزوجك ولسانه يتكلم باسمك. وتصرفاتك محسوبة عليه، فلا تحاولي أن تتخطي حدودك، غضب الزوج الفجري لسوء تصرفات

زوجته يجب أن يظهره للجميع حتى يحتفظ باحترامه في أعين قبيلته.
لذا فإن مبادئك الغريبة المتعجزة لن تجدي في مواجهة يد الزوج
الغاضب».

فضحكت مارييل باستخفاف، وقالت وهي تعلم أن في
استطاعته إيذاها:
«إنه لا يجرؤ على ذلك»

وعندما أخذت ترتب كوري وهي تحاول فرد ثوب الزفاف الذي
التقطته من الأرض، كان ذهنها يحاول استيعاب المأزق الذي لا
تصدق أنها وقعت فيه. فبالنسبة للفجر أصبحت الآن زوجة لأحد
قاداتهم، أي لشخص لا يتوقع الناس منه أية أخطاء، وبدون قصد
أفلتت منها تهيدة عندما تذكرت فجأة مظاهر الضجر التي ظهرت على
روم عندما سمع حكم المحكمة، فيما كانت هي تخشى أن ينال
عقاباً تجهله، كان هو يتوقع، وهو على حق، أن النتيجة ستكون ربطها
برباط الزوجية. ولكن ما هو موقف صوري التي جاء اسمها دون أن
تتوقعه على السنة الفجر؟ ولم يستطع أحد، ولا حتى كوري، أن
يناقش معها سبب الولاء الذي يدنون به لحالتها. لكن اتضح لها أنها
محبوبة منهم جميعاً، حتى أن روم فضل أن يتحمل التضحية
بالزواج من امرأة يحتقرها على أن يضر سيدة محبها. عندئذ ارتعدت
من هول الموقف، ويبدو توصلت إلى قرار، إن وجودها لم يجلب إلا
المشاكل لحالتها و لروم ولقبيلة الفجر بأكملها، لذا شعرت أن من
واجبها الابتعاد عنهم والعودة بطريقتها الخاصة إلى انكلترا قبل أن
تتورط أكثر من ذلك في حياتهم.

كانت استعدادات الزفاف على أشدها عندما سمعت طرفاً على باب

عربتها. ولم تهتم مارييل بالتقدم لفتحها، فقد ظلت طيلة بعد الظهر
مجردها تخطط لرحلتها، ثم تعود وتستبعد الخطط من ذهنها المتعب لصعوبة
تنفيذها. فلم تكن لديها تقوى، كما لم تكن لها وسيلة انتقال، إلى جانب
أن الملابس التي ترتديها ستلفت إليها الأنظار حتى في مدينة مزدهجة
بالناس، وكان رأسها يعج بالأفكار عندما سمعت الطرق على الباب
للمرة الثانية. وبثاقل جرّت قدميها وتعثرت في مشيتها نحو الباب.
وفجأة تذكرت أن كوري وروم لا يهجان بالطرق على بابها عند
دخولها، لذا هيأت نفسها لأن يكون الطارق غريباً عنها. وعندما رآته
شعرت من المفاجأة وقالت:

« كاليا»

ودعشت مارييل من جرأته على مخالفة تقاليد القبيلة بالمجيء إلى
بابها. ففي عرف القبيلة لا تجرؤ زوجة قائدهم على استضافة شاب
أعزب، لذا همت إليه قاتلة وهي تنظر حولها في الظلام خشية أن
يكون هناك من يتجسس عليها.

«انصرف - انصرف في هذه اللحظة، هل تسمعي!»

وبخفة غزلان الغابة، انسل من ورائها وأغلق الباب خلفه. فقالت
له بتوصل:

«هل جئت؟ قد يرجع روم في أية لحظة».

فأبدي كاليا دهشته، إذ كان من قبيلة فقيرة متخلفة لم يحاول
أفرادها رفع مستواهم بما تسب عنه تربية أفرادها الجياع على مبدأ
الغش والدعاء الذي يظهرونه في قالب من المداينة الماكرة والكلام
المعسول. أخذ كاليا في ممارسة هذه الصفات معها فأضفى على
صوته اهتياجاً مفتعلاً بها، جعل قلبها الجريح يشعر نحوه بالشك

والتقدير وقال لها:

«كنت قلقاً عليك، لا تشتر إشاعات في المعسكر بأن زواجك من روم كان مصلحة فرضت عليك بسبب نصري، ولا أطيق أن أكون بغبائي قد دفعت بك إلى أحضان رجل آخر قول لي يا زهرتي الجميلة إن لا، كاذبة حتى أجعلها تدفع ثمن فعلتها».

وفعلاً نجح قلقه عليها في تخفيف بعض الألم الذي كان يعصر قلبها فروت عليه بسعادة الطفل الضائع الذي يبحث عن مأوى في عالم كبير.

«لا لم تكذب يا كاليا، ويجب أن أهرب من هنا. هل تساعدني؟ وطماناً قائلاً وهو يخفي فرحته بانتصار خطته:

«سنهرب الليلة، لدي خطة مضمونة، إلا أن توقيتها شديد الأهمية أطلب منك أن تقضي بي وتتلفي تعلياتي بدون أسئلة».

انتظر حتى أومأت برأسها موافقة، وقال لها شارحاً خطته بسرعة:

«داشتركي في احتفالات الزفاف، وتظاهري بأنك عروس سعيدة. وهكذا لن يشك أحد في شيء وسيكون لحظتي حظاً أولاً في التراجع. وعندما يتقدم الليل وينتهي الجميع في المرح والشراب، سيطلب الحاضرون من روم أن يقوم بطقوس العرس، وحينئذ سأقوم أنا بدوري. وستكون على بعد أميال قيل أن يتنهد الغافلون ويعتدوا جياهم للحاق بنا».

وداخل مارييل انشك عندما بدت على قدمه ابتسامة فيها دهاء وخبت. لاحظ كاليا ترددها فقال لها:

«إما هذه الليلة أو لا... ولا داعي لأن أذكرك أن غداً ستكون القرصة قد فاتت...»

وبدا عليه الرقعي عندما عاد اللون إلى وجهها مؤكداً له فهمها للموقف. استعد للانصراف وقال عندما وصل الباب:

«ابذلي قصاري جهدي، وتظاهري بالمرح خاصة تجاه روم، فالأبد السبعان سيستخدم طاقته في الهدير. لذا احرصى على أن تظل بخاليه حلوة كالعسل».

وسرعان ما انبعثت في الجو رائحة الطعام اللذيذ الذي كانت النساء منهككات في طهوه. فكان الدجاج والأوز يكتسب لوناً محمراً وقد عطر بالزعتر والثوابل، ووضع بداخله عشر من التفاح والزبيب. ووضعت أكوام البصل والبطاطس المحصرة وورق الكرنب المسلوق والمحشو باللحم المفروم والأرز المتبل، وكلها معدة لتقدم مع قطع اللحم الكبيرة المحمرة والمتبلّة باليانسون. وكانت الموائد محدودة وعليها صحون كبيرة مملوءة بالخس والبندورة والخيار المملح، واللوزية المخلوطة بالफल الأحمر وصحون من سلطة البطاطا وقطع الجبن. أما الخبز والزبد فقد وضعا في أكوام مخرصة كلفها معدة لاشباع شهية الناس الذين كانوا يشهدونها بالشراب.

وحسب التقاليد التي شرحها لها روم، لا يأكل العروسان حتى يتم تقديم الطعام للضيوف. وعلاً بهذه التقاليد علونته مارييل في تقديم الطعام للمدعوين، فكانت تطوف برشاقة بثوب زفافها الأبيض الذي كان يبدو في ضوء القمر وكأنه يذوب في نوره. ولم يترك روم مجلسها طيلة السهرة تقريباً. ورغم أنها كانت تعلم أنه يلازمها قسياً مع التقاليد إلا أن تقاطيع وجهه شجعته على أن تسأله:

«فلماذا لم تستخدم الزهور في الحفل؟ فإن الموائد تنقصها هذه اللمسة الجمالية الأخيرة».

فأجابها بطريقة جعلت قلبها يصرع في دقاته:

«يرى الفجر أنه يجب ترك الزهور وشأنها كجزء من الطبيعة. كما أن الزهور المقطوفة رمز للموت. ألسنا نحفل الآن باستمرار الحياة؟»

استمرار الحياة؟ ولفترة كاد الانفعال ينقلب عليها، لكنها سرعان ما ضغطت على نفسها حتى عادت لعالم الواقع. وكادت تنهض بتفريق هذه الأكذوبة الكبيرة. أكذوبة الزواج. عندما تذكرت تعذيرات كاليا لها وتذكرت رغبتها في الرحيل والابتعاد عن روم وقيلولة.

وأصبح من السهل كليا أرخى الليل سدوله أن تتلاقى نظرات روم بنظراتها من فوق رؤوس ضيوفها المرحبين. وكلما تباعدت نظراتها كانت تبحث عنه من فوق رؤوس الحشد الذي يفصلها فتعود إلى جانبه كما يعود الحمام الذي يلجأ لعشه. وأخيراً. وبالرغم من مطالبته الناس ببقائهم معهم، وضع ذراعه على كتفها وجذبها إلى جانبه بحركة غلظت هزت بشدة إيمانها الراسخ بحرية المرأة. وبينما كانا يرقصان ويضحكان يأكلان معاً كانت تنظر حتى تهدأ مشاعرها، ولكن لمساته ظلت تثير أعصابها، كما شعرت أن صوته الحادى الخافت يبدو في أذنها كأنغام القيثارة.

كان يحتضنها بقوة أثناء الرقص، وكانت الموسيقى تنسجم مع مزاجه الذي تحول فجأة إلى عاطفة متأججة. وفي خلفية المكان وبينما كانت تنساب إلى أذنانها أنغام حائلة من كهان بعيد، اقتربت شفتا روم من أذنها قبل أن تستقرا يرفق على خدها المنورد وقال لها ضاحكاً:

«جلدك مثل الخوخة. ترى ماذا تفعلين لو خطر لي أن أعضبك؟»

وحس جسدها المرتعش إليه بقوة وضحك يحنان عندما دقت وجهها في كتفه. وأخذتا يتأيلان في ضوء القمر ويقدمان للمتفرجين من الفجر

صورة جميلة للعريس وميم مبسم غارق في سحر جمال عروسته الشابة الجمول.

تست. مارييل خطة كاليا وهي تستسلم تماماً لمواقف روم فأسندت رأسها على نض قلبه الذي يدق بشبات وثقة. وانتابها شعور جارف جعلها تؤمن بأنها ستعيش سعيدة إلى الأبد بين هاتين النراعتين اللتين تحتضنها بحنان زائد. كانت تحت سحر تلك اللحظة السعيدة بحيث جاءت الصدمة عنيفة عندما انزعجتها من بين أحضان روم أذرع قوية في مضاعبة سخيفة إذ اندست بينها جماعة من الصبية يضعكون وأبعدوها عن بعضها تماماً. وعندما التف حولها الصبية في حلقة متأسكة الأيدي شعرت بحرمانها من روم. ثم تذكرت ما سبق أن قالته كوري. لروم من أن عليه أن يتأصل لينال عروسته. فبالرغم من إقام مراسم الزواج ودفع ثمن العروس والاحتفال بالرباط المقدس بينها إلا أن على العريس أن يتأصل من أجل استلام عروسته له.

وفي بداية المناوشات الشهيدة المرحة. انتظرت مارييل وقد انعكس وهج نار المعسكر عليها وأظهر جمال ثوبها المشوق. وفي تلك اللحظة القصيرة بحثت عينها عن روم ووجدته يبحث لها بالشماسة حلوة وفي الحال أخذ قلبها يقضي رغم تحملها لدفع الصبية لها وجذبها.

وكلما ازدادت محاولات الابتعاد زاد المرحج. وفي ظلام الليل لم يعد في استطاعة أحد التعرف على غيره، لكنها شعرت بأن انكشاف حلقه أعوانها حولها أكثر فأكثر معناه تغلب فريق روم عليهم. وزاد الحماس للرجة أنها لم تستطع حبس صيحتها عندما خرجت يدان من الظلام تبحثان عنها. وكان الصوت الذي وصل إلى أذنها جاداً وهو

يقول:

«اتبعني بسرعة وأجرني بأقصى ما عندك».

لكنها حاولت الإفلات منه وهي تقول:

«كلا يا كاليا.. لقد غيرت رأيي ولا أريد الرحيل».

ورغم أنها لم تستطع رؤية وجهه إلا أن غضبه ظهر في اشتداد قبضة يده عليها. ومع ذلك صمم قائلاً قبل أن تنزل يده على رأسها لخلقها بها أرضاً وسط الألم والظلام.

«بل يجب أن ترحلي».

وساعدت بروقة هواء الليل على إعادتها لرشدها وإخراجها من هوة الألم التي سقطت فيها لتواجه كابوساً آخرًا. وأدركت مارييل أن أية محاولة للكلام بصوت يعلو على صوت العنان ووقع الحوافر لن تأتي بنتيجة. تشتت بجانب العربة وقد تغلب عليها ألم آخر أقوى من ألم رأسها النابض وهو حسرة قلبها وقد أخذت أضواء المعسكر يتاره الموقدة تتباعد تدريجياً حتى اختفت تماماً.

ورغم أن عينها لم تدعها، إلا أن العبرات خنقتها بينما أخذ كاليا يضرب الحصان ويدفعه بلا رحمة. وعندما اصططفت سماء الليل باللون البرتقالي الذي يشير بيزوغ الشمس انحراف عن الطريق العام ودخل مساحة بالأشجار حيث أوقف الحصان وقال لمارييل أمراً: «انزلي... تجرد مذن في العربة، لكننا لا نستطيع أن نكشف عن مكاننا بإيقاد النار. سنكتفي بأكل الحيز واللحم الباردة».

ف نظرت إليه ملياً قبل أن تجيب ببرود:

«إذا كنت في حاجة إلى طعام، أعد نفسك، قلت لك إنني غيرت رأيي وإنني أريد البقاء حيث كنت، ومع ذلك ضربتني».

وينون وهي مرت بأناملها على الجزء المؤلم في رأسها وقد استعادت في ذهنها اللحظات المخيفة المذهلة التي مرت بها. لم يسبق أن ضربها أحد حتى في طفولتها، وكانت هذه المعاملة الوحشية التي تعرضت لها من ذلك الرجل أكثر مما تحتملها.

ولفتح كاليا فمه غاضباً مثل حيوان ثائر وأمسك بذراعها وسحبها من العربة وألقى بها أرضاً ثم قال لها: «إذاً غيرت رأيك».

واستطرد يقول وهو يتشقى فيها بصورة جعلتها ترتعد:

«إنني أرثي لحالك. فإن خطئي لمساعدتك كانت أثنى مما تستحقين. لكن روم يورو رجل غني بحيث يستطيع أن يدفع الثمن الذي سأطلبه منه لاسترداد عروسه سالمة».

وجال بنظرة الصارم على وجهها ثم أضاف بحدة:

«بالطبع، إذا أتينا ورفض دفع المبلغ فلن أكون مسؤولاً عن سلامتك».

ثم تظاهر بالرتاء للحلما وهو يستمتع بخوفها وقال:

«فليكني مثل يقولونه وهو، كلما كان لون ثمرة الثوت داكناً أكثر كلما كان طعمها أحلى. إن قوامك نحيل ولونك شاحب أكثر مما أحب. ولكن إذا لم يدفع روم فلا بد أن أرغم نفسي على...».

وكان يعني ما يقول... فقد كان شريراً بدون رحمة. وهتف بها هاتف الأستهين بعبارة التي يشير بها إلى قدرة روم على أن يدفع مقابل إعادتها إليه. إن كاليا قد يرضعها وهو في حمة غضبه على أن تدفع ثعناً غالياً لتضع رغبته. لذا التزمت بالصمت وهي تتضرع إلى الله أن يوحى إليها بالحل. وشاءت كيف توفعت أن يراعي مثل هذا الفجرو

الشرس مشاعرها أو كبريها.

سقطت مارييل على نفسها وأعدت له الطعام بيّناً أخذ هو
يعنى بأمر الحصان، وكان عصبياً ومتيقظاً لأي صوت يأتي من حوله
حتى ولو كان وهمياً. وعينه الزائفتان تفتشان بقلق بين الأشجار وكأنه
يتوقع ظهور أحد في أية لحظة، ولكن عندما امتد النهار بدأ يهدأ وقال
لها إنه يعرف تعباً يمكنها الاختفاء فيه إلا أنه بعيد عن مكانها ولا
يريد أن يجازف بالسير نهاراً، لذا رأى أن يسيرا حيث هما حتى يأتي
الليل قبل أن يستأنفا رحلتها.

وكانت عينا مارييل مثفلتين بالتعب لكنها صمتت على أن تظل
مستيقظة أملاً في أن يتغلب تعب كاليا، على مقاومته للنوم.
ولاحظت وهما جالسان أن رأسه أخذ يضغط على صدره من شدة
التعب. وعندما تحولت أنفاسه إلى شخير بدأت تسلك مسطرة عنه
وهي تضي بخطوات حذرة قصيرة نحو الأشجار المحيطة بالمكان. وكان
تسللها بطيئاً بحيث بدا لها الوقت وكأنه ساعات طويلة قد مرت قبل
أن تصل إلى بداية الغابة المحيطة بهما، وشعرت بالدم ينبض في رأسها
ويغطي على صوت شخير كاليا. وتوقفت برهة لتلتقط أنفاسها ثم
بشطرة أخيرة نمره هربت من خلال الأشجار التي تغطي المكان وجزت
بأقصى سرعتها في اتجاه الطريق العام.

شعرت كأن رثيها محترقان من التعب وتجعل من تنفسها جحماً
عندما وصلت إلى حافة الغابة ونظرت إلى الطريق. وكان وجهها
ويدها دامية من الجروح ونورها الحريري مرققاً. إلا أن منظر الطريق
رفع من معنوياتها وخفف من وقع خطاها وجدد قواها ومشت وهي
تترنج. وشعرت مارييل بالارتياح ونظرت حولها باحثة عن أثر لأية

حياة لكنها لم تر شيئاً يتحرك حتى ولا بارقة أمل في دخان يتصاعد من
مدخنة منزل بعيد. وفجأة سمعت عن بعد خطوات غاضبة مسرعة
نحوها من بين الأشجار وأطلقت شهقة. وبجهد جهيد أخذت تجري، إلا
أن تقدم كاليا كان سريعاً كما كان تعبها شديداً لدرجة أنها ارتاحت
عندما قبض بشدة على كتفها. وأدارها لتواجهه وكأنها دمية لا إرادة لها.
ثم أغشى عليها قبل أن ينزل بيده على رأسها بضربة لوقت، لقصت
عليها نهائياً.

٦ - عقاب الفجر

وعندما عادت إلى رشدها كانت ممددة بين الأشجار، محز في معصمها وكاحليها الجبال. بينما دست في لها قطعة لهاش خشنة عليها لثام يشتها في مكانها. أما كاليا فكانت ممدداً أمامها مباشرة تحت شجرة وقد علا شخيرها دون أن يأبه بالآلام سجينته، وهي ملقاة تحت وهج الشمس في منتصف النهار.

وعندما استيقظ من النوم كانت ماريبيل في حالة هذيان وإعياء شديدين من آلام الجبال المكيلة بها، وحرارة الشمس والشم الخائض الذي على لها، ولم يبد لها أية رحمة حين انحنى ليحل القيود التي بدأت تؤلمها وكأنها قيود حديدية. وسألتا متلهساً للثام وهو يفكر، هل يرفعه أو يتركه.

«هل أفهم أنك مستعدة للطاعة الآن؟»

فأجابته من بين شفتيها المتورمتين وبغيتيها المترسنتين: «نعم».

ولاحظت على فمها حركة استهزاء بها، إلا أنه فلك الحيال وتركها كذلك معصمها وكاحليها لتنشط الدورة الدموية. ومع ذلك لم تلمه أو تنهه حتى/عندما قال:

«هذه مجرد عينة لما سيحدث إذا حاولت الهرب ثانية، فإن وجودك معي معناه الثروة في جيبي، وسيكون غضبي شديداً إذا كانت هناك محاولات أخرى تمرقل خططي. إنني أرشي لرغبتك في العودة لزوجك وأرجو أن تكون ملفته عليك بمائلة للبهتانك عليه».

وتردد صدق ضحكته في أرجاء المكان، بينما أخذ يشهد عنها ليقدر جوارده. وحاولت جاهدة أن تكتم رغبتها الجائعة في الرد عليه بالاهانات التي يستحقها والتي تضطرم على شفتيها.

وبقي على حلول الليل ساعتان قضتها في إصلاح ما أفسدته القيود من مظهرها، فاغتسلت بالماء البارد لتساعد على تخفيف الورم من شفتيها وفراعيها ووجهها، كما حاولت بأصابعها البتلة، إصلاح شعرها المشعث وتركته أملس ملتصفاً برأسها. أما ثوبها فكان مشكلتها الكبرى، فقد تمزق إلى قطع مستطيلة نند من ركبتيها حتى الأرض. فبدأت في قطع الأجزاء الممزقة منه مراعية أن يكون ذيل الثوب متساوياً بقدر الامكان. وبعد أن رفعت من معنوياتها كامراً، عادت ثانية إلى المكان الفسيح فوجدت كاليا قد ربط الحصان بالعربة ووقف ينتظر ووجهه متجههم. وبدون كلمة ركبت ماريبيل العربة وقد ألزعتها فرقة السوط وهو يضرب به ظهر الحصان. وبفتحة فجائية كادت تلقى بها أرضاً، تحركت العربة ثم توقفت فجأة وتراجع الحصان إلى الورا فالتحاً خياشيمه وبأسطاً أذنية دلالة على الخوف من شيء ظهر في طريقه، فأخذ كاليا يشتم وهباً واقفاً، وراح يشد العنان ليحث الحصان على التقدم، ولم يستطع أن يرى شيئاً في ظلام الليل، لذا كان جزعه كبيراً عندما سمع صوتاً أنياً من جهة الأشجار وهو بأمره قائلاً: «انزل يا كاليا، انزل لثام عقابك».

وخرجت من فم ماريبيل كلمة واحدة:

«دروم»

وفي لحظة كان المكان يعجّ بعدد كبير من الفجر الذين خرجوا من بين الأشجار وقد نهجت وجوههم وتحفزوا للانتقام وهم يطالبون بإقرار

العدل وإنزال الجزاء. وصاحت مارييل وانسلت من جانب كاليا
الذي ستره الخوف في مكانه. وجرت نحو روم فدفعها خلفه لتضم
إلى مجموعة المتفرجين الذين كانوا ينتظرون بأنفاس محبوسة أول خطوة
يشغلها قاتلهم لينتقم من خصمه.

وأرخی الخوف قبضته على حيال كاليا الصورية، فتتمت قاتلاً:
ولقد رجنتي المرأة أن أساعدها، فهي تكركك يا روم يور و حتى أنها
عرضت علي رشوة لكي أعاونها على الحرب. إن قبيلتي فقيرة وحاجتها
شديدة إلى المال فلا تلتني على فعلتي.

أما احتجاجات مارييل على اتهامات كاليا وادعاءاته فقد
أخذتها همسة الرثاء التي تصاعدت من الفجر المحيطين بها. وظل
روم الوحيد الذي لم يتأثر ولم تظهر عيناه أية دلالة على اللين، بل
لجاهل توسلات كاليا وكرر أوامره:

«انزل يا كاليا واحضر سوطك معك».

وردد الرجال بخضب وفي همس خفيف، عبارة واحدة هي: نزال
بالسياط فتجددت مارييل من الخوف وضغطت على نفسها لتشاهد
نوفاً آخر من الطغوس الممجبة. كان روم قد تحدى الرجل الآخر
وإذا تراجع الآن، فإنه سيبدو للفجر وكأنه أرغم على قبول الإهانة
بدون الرد عليها.

وفي الحال تظاهر كاليا بأنه المغلوب على أمره فبتراخ أطاع أوامر
روم، ومد يده إلى سوطه الذي كان حتى الدقائق القليلة الماضية
يلهب به ظهر الحصان. وتظاهر كاليا بالمذلة عندما نزل من العربة،
إلا أن روم لم يسمح لذمته أن يتصرف عنه لحظة. وبينما هو يعذ
نشة سوطه انهال كاليا بالضرب، وتلت ذلك شهقة هامة تبعها

ضربة السوط وأمام عيني مارييل ارتفعت يد روم لتغطي خده
الدامي الذي هوى عليه سوط كاليا. وأظهر الحاضرون استنكارهم
واستياءهم لتصرف كاليا، لكن سرعان ما جاء رد فعل روم، فبطه
فرد سوطه الجلدي الذي يشبه الثعبان، وركز نظره على وجه كاليا
الماكر، ودار حوله بدعاء معبراً عن غضبه حتى أن مارييل شعرت
برعدة خوف ثيابة عن خصمه. واجتعد الفجر المتفرجون، وتركوا مسافة
كافية يتفادون بها وصول أطراف السياط إليهم. وكانت أنفاسهم هي
الوحيدة المسروعة.

ومرة أخرى ضرب كاليا بسوطه. إلا أن روم قفز إلى الخلف
وتفادى السوط وبخضب شديد بدأ روم بناوش غريمه. وبسطه إلى
تصويب ضربات طائشة استطاع تفاديه، ويكرّيه شديدة دار حول
كاليا الذي أخذ يتصب عرقاً ويتقهقر إلى الوراء بعيت وضعت
إهانته للجميع. وأخيراً أثارت نداءات الاستهزاء التي وجهها إليه
الرجال فبصق كاليا نحو روم بازدياد. قيل أن يتلوى من الألم
الذي أحدثته ضربة سوط على فمه. فبحركة سريعة من الرمش انتظم
روم منه.

وكادت مارييل أن تصاب بالغثيان عندما سقط كاليا على
الأرض وهو يمسك بفمه المفلطوح بأصابعه الدامية. وتراجعت مترنحة
ودموع الحجل والخوف تسيل على خديها، كانت حواسها منهارة حين
قال لها روم:

«وقري دموعك، فستحتاجين إليها فيما بعد لانيات تهمتك. فإذا شعرت
أن عقاب كاليا صارم فأحمدي الله أنك لم تتزوجي غريباً أصيلاً،
فإن العقاب الذي يوقعونه بالزوجة الخاطئة وحشي لكنه رادع جداً».

واستدارت ببطء لتواجه روم وقالت هامة:

«ماذا سيفعلون بي؟»

«إنهم سيفرجون فقط بيننا أعاليك. وأنا على استعداد للتنازل عن هذه الطقوس، لولا أنهم يتوقعون مني باعتياري قائدتهم معاقبة خيانة زوجتي بالطريقة التي تقبلها القبيلة، وهي الطريقة الجنسية».

وبينا هي تتحلق فيه بعينين زائفتين، ارتجف فمه متأثراً بألم عميق، وبدأ عليه ضيق لا يحتمل فجذبها وقال لها بمرارة:

«لماذا فعلت هذا؟ لماذا؟ لم أكن في حاجة لأشرح لك أن طقوس الزواج لم تكن لها أهمية بالنسبة لي أولئك. وأنها ليست ملزمة قانونياً أو أدبياً بل هي مجرد نزوة أصدرتها المحكمة ويمكن تسليتها بمجرد سفرك».

وتأمل وجهها الشاحب وقهل عند عينيها اللتين تحيط بهما الكدمات. نظرت إلى فمها الذي لم تعد تستطيع السيطرة على ارتجافه وقال:

«ليس هناك ما يخيفك مني، فكل ما أريده هو أن أفي بوعودي لصوتي. وأخرجك بسلام من هذه البلاد. ربما كان يتعين علي أن أطمئنتك من هذه الناحية، لكنني اعتقدت أن دوافعي واضحة لا تحتاج لمزيد من التفسير».

وقالت مارييل يتردد وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها:

«لست متأكدة مما تشير إليه، لكن إذا كان هو ما يدور بخلدك، فاسمح لي بالقول إن غرورك كبير. لقد طلبت من كاليا مساعدتي لأنني سمعت السفر مع قبيلة من المتوحشين الذين تفرزني خيامهم».

ولم يكن روم في حاجة للتظاهر بالغضب عندما قاد العربة بسرعة طائشة إلى داخل المعسكر. وكان الرجال الذين راغفوا في البحث عن كاليا قد عادوا قبله. ودلت نظرات النساء وشفاهن المبطنة على

القصة التي وصلت إلى المعسكر قد جعلتهن يشن مارييل. واندمج روم في دور الزوج الغاضب، فقفز من العربة وانزعج مارييل بقسوة من ملعدها وأوقفها على الأرض بعنف، شعرت بألم في فقرات ظهرها. وكظم غيظة عندما صاحت لالا من بين جموع الناس:

«إنها عتيبة يا روم بورو، قيا لعارك... إذ بلوتنا مخلوقة لا تستطيع ترويضها».

وكانت مارييل منهكة لا تقوى على المجادلة والتشجار فقد غطت مخاوفها حتى على ثقتها بأن غضب القبيلة لن يهدأ حتى تهان وتضرب علناً. وأنشقت على روم لاضطراره لمواجهة موقف يتطلب تصرفاً كانت تعرف بغريزتها أنه كريمة على نفسه، وأخذت ترقبه بهدوء ولكن بالهفة لتري نتيجة صراعه ضد ولائه لشجيين متفهمين: ما تنتظره قبيلته منه. وكراهيته المتأصلة للعدوان الجسدي على امرأة. ولم يتوقع أحد غيرها أنه قرر أخيراً اتباع الحل الوسط فعندما مد يده ليأسكها من كنفها وجهها لتدعن لارادته هيس من بين شفتيه اللطيفتين:

«تظاهري بالألم... اصرخي وصيحي، واقعلي أي شيء يرضي تعطشهم للانتقام».

لكنها لم تقو على ذلك وشعرت كأن حواسها مشلولة بسبب العذاب اللاهني الذي عانت منه. ولما يس من رفضها التعاون معه، عاد وهزها بعنف ثم ألقى بها بوحشية فوق كتفه وأخذ يحظر بها نحو العربة. وحينئذ سمع صوت تيرم الحاضري وهم يقولون:

«إن الحياة بين الأغراب جعلت قائدنا ضعيفاً».

ورد بعضهم قائلاً:

«لن يظل روم إلى الأبد راضياً عن مشاركتنا حياتنا. ويجب أن تستعد لليوم الذي يقرر فيه أن يعود نهائياً إلى أهله وعشيرته».

وكانت ترد في أفذه عبارات اللوم المشابهة، عندما خطا داخل العربة ودفع الباب ليفلقه بقدمة وقال «مارييل وهو ينزلها إلى الأرض».

«أيتها الحفقاء الصغيرة، هل كان من الصعب عليك التمثيل لترضيهم؟ ألم شعري بتعطشهم إلى رؤية دعوتك وسامع لضرعاتك وتوسلاتك أو أية دلالة أخرى على العذاب الذي يتوقعون أن تعاني منه الزوجة النادمة! لا شك كان في مقدورك اختلاقي شيء أكثر إقناعاً من نظرة القطعة الخائفة التي بدت على وجهك».

وكان وهو يقول ذلك ممسكاً بذقنها بيد قلقة حتى انعكس غضبه في العيين الرماديتين. وأخيراً ارتجفت عندما قال لها أمراً:

«إنهم ينظرون في الخارج، ويأملون أن تكون شكوكهم في غير محلها، وأن يكون قائدكم المختار قادراً على كبح جماح امرأة متسرعة».

ثم تابع كلامه بنعومة خطيرة:

«سواء تعاونت أو لم تتعاوني فإنني أنوي ألا أسبب شيئاً من خيبة الأمل للقبيلة».

فصلقت مارييل فيه وتبعت إلى معنى خفي في كلماته ثم تراجعت وقد انتابها الخوف لأول مرة. ليس من غضبه ولكن من الابتسامة الغريبة التي بدت على قمه فاستعطفته بوجهها الشاحب:

«كلا... أرجوك، كلا».

لكنه تقدم منها ووجهه يعبر عن تصميم أثار الرعب في نفسها وهو يقول:

«بل نعم».

ولم تسعها حراسها المتجمدة من الخوف لتزد على مطالبه اللحة. لقد انتهى من التمثيل. فلم يكن تصرفه هذا من أجل إرضاء عروسه بل ليرضي رغبة أثارها فيه وجعلته يود الانتقام منها بأن يراها تتلوى وتطلب عفره ورجعت.

لقد كانت الضربات في نظرها أمراً من شغف اللعين حاولنا الانتقام منها بطريقة أخرى. قتلت فيها القدرة الهائلة على الحب الذي كانت مستعدة لأن تقدمه له طواعية في وقت من الأوقات. وعندما ابتعد عنها ليمتنع بجمال كتفها قاومت بكلمات غاضبة خرجت من حنجره ضاقت بالانفعالات. وعندما دفن وجهه في رقبته، ضحك متعكماً مما أثار روح العدوان المكيونة بفعل العاصفة العاطفية التي كانت قد حملتها.

وأخيراً أبعثته عنها وصرخت صرخة عالية اخترقت جدران العربة وخرجت إلى أذان جميع سكان المعسكر، وبغضب شديد أشيت أظافرها في وجهه وركلته وداست على أصابع قدميه بكتف حذائها. وثار عليها وحاقها بأن أمسك بذراعيها وضمها إلى جنبها مما تسبب في اختلال توازنها ومقوطها معاً فوق حوان صغير نظائرت منه الصحون وكسرت على الأرض بصوت دوى في أرجاء العربة. وبمجهود كبير أفلتت منه وتراجعت لأخر العربة وهي تقابله بعاصفة عاتية من الغضب إلا أن روم كان مشغولاً عنها بشيء آخر فقد أخذ ينزع قطع الصيني العاتقة بملابه ثم قال لها بهدوء:

«ستظلي عليهم هذه الخدعة، فكل ما علينا الآن هو أن نلزم الهدوء ونترك الباقي لمستعصينا الذين سينصرون أن المرأة المتسرعة قد روّجت وأنا الآن في طور المصالحة».

ونزلت ذراعها إلى جانبها وقد صيغ مضمون كلامه وجنتيها بحمرة
الحجل والاذلال معاً. وهي تلحظ على وجهه تعبيراً ينم عن تسلية بهذا
الموقف.

ولم يكن هناك بد من بقائه في العربة تلك الليلة إذ أن البيت خارجها
قد يثير الشكوك في أذهان رجاله. لذا فرد بطانيته على الأرض وقعد
عليها. وبعد أن قضى لها ليلة طيبة استغرق في النوم. وليلة ساعات
طويلة ظلت مارييل مستيقظة في سريرها وهي في حالة حذر لا
تصدق أنه قد عاد إلى حالته الطبيعية. وبامتداد الليل وانتظام نفسه
بعد استغراقه في النوم، سمحت لأطرافها المتوترة بالاسترخاء رغم استمرار
تضارب الأفكار في ذهنها. ووقعت أصبعها لتتلمس شفتيها الساخنتين
وكانه قد تركها تواء. ذلك الموقف الذي خدعها للدرجة الاستسلام.
جعلها تخوض حريقين. واحدة ضده والأخرى ضد صوت داخلي دفعها إلى
الانسحاق لأغراء اللحظة. ترى ماذا ستكون النتيجة إذا استمعت
لذلك الصوت؟ هل كانت ستعرض للصدمة ثم انقلبها نوبة من الحجل
جعلها تستسلم لنوم عميق.

واستقبلت اليوم الجديد برائحة القهوة الطازجة وهي تساق في
أرجاء العربة. وكان روم قد خلق ذاته وهذا عليه النشاط وهو
يتحنى عليها عندما لمحت عينيها وأبسم لها قائلاً:
«هل أفزعك؟ اشربي هذا. فستساعد القهوة على إغاثتك وأبعد
الأحلام عن عينيك».

وشربت القهوة بارتياح وتقايلت أعينها في جدية كالأطفال من
فوق حالة التنبؤ ثم قطب جبينه واستدار قائلاً:
«عندما تنتهين سأغير فراش السرير».

وقال مفسراً عباراته وقد بدأ التساؤل في عينيها.

هذا ما يتوقعه الفجر مني. وهي عادة أخرى غريبة يجب أن أتحملها.
ونظرت إليه مارييل بهدشة وقد حيرتها طجة القلق البائدة على
صوته. إلا أن وجهه كان لا يعبر عن شيء. فأطاعت وشربت القهوة
وغيرت ملابسها بعد أن أدار ظهرها لها ثم جمعت الملابس وأعطتها لمس
فقال لها بأدب. وهو يحاول أن يتفادى نظراتها الحائرة:

«ربما تودين الاغتسال بينما أتولى أنا أمر الفراش».

وعندما شعرت أنه يريد التخلص منها حملت منشفتها وخرجت من
العربة. ثم عادت ثانية مدفوعة بغضول لم تستطع مقاومته. وعندما
وصلت إلى العربة بدأت تسير ببطء وهدهده ولم تفصح وقع أقدامها
الصامتة أمر عرفت. كان روم قد وضع الملامات على السرير
وانحنى عليها يحاول عبثاً أن يسيل خطأ من الدم فوقها من جرح في
أصبعه وعشقه تسببت مارييل حذرها وانطلقت إليه قائلة:
«إنك تنزف يا روم».

واستدار إليها بغضب وأسقط في جيبه المطواة التي كان يمسكها
وقال باقتضاب:

«إنه لا شيء... مجرد جرح بسيط».

شعرت أنها كانت تتجسس عليه وهو ذنب لا يغتفر في أعين الفجر
لذا استدارت وهي تحاول ألا تستجيب لرغبتها الطبيعية في تغيير
الملامة التي جفت عليها نقطة الدم. وعندما التفتت نحو الباب سمعت
صوتاً من الخارج شل حركتها. انها لالا تصيح قائلة والخلد يتخلل
كلماتها:

«حضرتنا لري فراش العرس يا روم بوروا».

وقالت شيئاً بصوت خفيض أثار الضحك بين زملائها. واستدارت
مارييل يدها مطالبة بشرح لكلامها. ولم تتوقع أن ترى روم
مخرجاً. فقد كان سيد المواقف كلها حتى تلك اللحظة. فبعد أن هر
كتفيه باستسلام ونظر إليها نظرة يائسة. وقع الملاءات الملونة بالدم
وخرج من العربة وأسقطها عند أقدام النساء. وفي الحال أمسكت
لالا إحداها وفردتها في ضوء النهار وكانت هي اللادة التي لوئها
روم بدمه. وعندما رأتها لالا قطعت جبينها من الغيظ وبعدت
بالغ قالت لمارييل:

«ليس غريباً أن تأخذ المرأة المشكوك في عذريتها حمامة معها في ليلة
زفافها»

وعندما استدارت لالا للتصريف. بدأت مارييل تفهم
مقصدها. وشعرت بهانة أفقدتها القدرة على الكلام كما لم تستطع أن
تواجه عيني روم. فرغم أنه حاول جاهداً أن يجنبها هذه الاحانة
الأخيرة إلا أنها شعرت نحوه بكراهية ولامته على العار الذي نزل بها
وجعلها لا تتجرأ على رفع عينها إلى هؤلاء الذين شاهدوا إهانتها.

ورغم حزنها فقد وجدت مارييل أنه من الصعب عليها في الأيام
التالية أن تتجاهل التقدير الذي طرأ على تصرف نساء القبيلة تجاهها.
لقد شعرها بالاحترام الواجب تقديده إلى عروس قائدهن وحاولن يشتي
الطرق أن يشعرنها بأنها أصبحت واحدة منهن. ومما طمأن مشاعرهما
استعداد كل واحدة من نساء القبيلة لتقديم الخدمات الصغيرة لها أو
توجيه الدعوات لتناول الطعام مع أسرته. أما اسم كاليا فلم يرد
على لسان أحد ولكن قبيلته لم ترحل عند انفضاض المؤتمر الذي عقد
لمحاكمته إلا بعد أن حكمت المحكمة عليه وعلى قبيلته بأن يتجولوا

إلى الأبد في وحدة قاتلة. إلا أن الحادث ترك شيئاً واحداً في ذهن القبيلة
وهو أنهم أطلقوا على مارييل اسم «الأوزة المتوحشة» إشارة إلى
أسطورة عجيبة قديمة تقول إنه كان من المستحيل ترويض تلك
الأوزة. ورغم أنها كانت ثقلت من صاحبها. إلا أنها كانت دائماً تعود
إليه

وبدأت القافلة تسير. تقربها مرور الأيام من نقطة رحيلها عن
روم. إلا أن انكلفتا كانت ما زالت بعيدة. ورغم أنهم كانوا
يسمرون في طريق غير مباشر تفادياً لاجراءات الأمن المفروضة إلا
أنهم اضطروا لعبور حدود النسا قبل التأكد من الوصول إلى بر
الأمان. وسألت مارييل روم قائلة:

«لماذا يعتبر السفر عن طريق تشيكوسلوفاكيا أسهل من السفر عبر
ألمانيا الشرقية؟»

فمد قدميه بطريقة تدل على تبرمه بجمود حركته مدة طويلة. فقد
هطل المطر طيلة اليوم وغمر الأرض بحيث لم يستطع أي شجري أن
يبعث في العراء في تلك الليلة. وهي فكرة شغلها طيلة الساعات التي
قضتها روم في دراسة الحرائط العديدة الممدودة أمامه ورسم خطة
السير. وأخيراً أزاح الحرائط ووجه لها اتهامه وقال:

«لدينا أصدقاء كثيرون في تشيكوسلوفاكيا. كما أن إجراءات الأمن
هناك ليست مشددة. فمثلاً يوجد قليلون مثل سرجي إيفانوف
ولذلك تفضل القبيلة الابتعاد عن الخطر الموجود دائماً».

وكان ذكر سرجي إيفانوف كافياً لازعاجها. فقامت مارييل
وسارت نحو النافذة الصغيرة ووجدت أن المطر قد توقف إلا أن السماء
كانت مليئة بسحب أكسها القمر جبالاً. وقفزت من الذعر عندما قال

روم وهو واقف خلفها وصوته قريب منها بحيث شعرت أن في استطاعتها لسه إذا أرادت:
«كان يجب ألا أذكر اسمه وأذكرك به».

ولقربه منها حركت أنفاسه خصلة من شعرها، وشجعه جالسا على تكرار الحركة وحسك عندما رأها ترتبك وتتورد وجنتاها خجلاً. وفي تلك اللحظة رأيا نجماً يهوي إلى الأرض. ولطفت نظره بعيداً عنها، أشارت إلى النجم وقالت:
«أنظرا هذا نجم يهوي».

فأمراها بعدة قائللاً وقد تحول من مزاح إلى جدية:
«لا تفعل هذا».

وعندما رأى تغيير تعبير وجهها قال شارحاً:

«يعتقد الفجر أن كل نجم في السماء يمثل رجلاً على الأرض. وأن اختفاء النجم معناه هروب لص.. فإذا أشرنا إليه بأصبعنا فإن الرجل الذي يشله ذلك النجم يقبض عليه. وقد خرج بعض رجال القبيلة الليلة ولم يعودوا بعد والعادات كما تعلمين لا تتدر بسهولة، فبالرغم من أننا الآن في مركز يؤهلنا لشراء ما نحتاج إليه من طعام إلا أن البعض يصمم على الحصول على بعض مطالبنا بسرقتها. واقترب منها بحيث كاد لسه أن يلمس خدها وقال:

«لا يرضي الرجل شيء أكثر من التغلب على نزوات المتوردين سواء كان غزاً شارباً أو امرأة. فكلها يضيف لذة إلى المطاردة».

وشعرت بضعف عام ينتاب جسمها، فإن جلاليته الطاغية كانت لومة بحيث كان دفاعها الوحيد هو السخريّة، فتشبت بها بنفس الدهن الذي ينتاب الغريق وأرادت أن تتحرر من سحر جلاليته فقالت:

«وماذا عن صوفي؟ وكيف يثير جودها تعطشك للآثارة؟ لا تقل لي إن مظهرها الخاص الخارجي يخفي وراءه سحراً خاصاً».

وحسكت بانطلاق على مفارقات شخصية خالنها لكنه لم يشاركها ضحكها بل أجابها باستياء قائللاً:

«إن خالتك سيدة غافرة، فكيف تتعجبين من حب كل رجل في المعسكر لها؟ فهي ساحرة لا مثيل لها، سيدة يسعد كل رجل أن يموت من أجلها».
وتساءلت: «ما ريبيل لماذا قلنتها اعترافاته إلى هذا الحد رغم أنها أكدت فقط ما كانت تشك فيه؟ وبينما كانت تحلف دمعاً مفاجئة سمها طوقاً شديداً على الباب جعل روم يستدير إليه ويفتحه ليجد غجراً مضطرباً واقفاً يقول:

«اليوليس! لقد ألقوا القبض على بعض الناس، لكنني هربت منهم أنهم يقتربون من هنا وسيصلون إلى المعسكر في أية دقيقة».

وبسرعة ليس - روم - سترته وهو يشتم من الغيظ وقد سمع صراخ النساء الذي سبق وصول رجال اليوليس.

ودفع الفضول مارييل إلى الباب لترى ما حدث لكن روم كان قد ركله بقدمه عند خروجه بعد أن وضع معطفاً حول كتفها

مارييل وأعطى تعليقاته إلى الفجري الذي حمل إليها الحبي:

«عندما أنصرف انتظر بضعة ثوان خذ زوجتي واخفها فلن نجازف بعثورهم عليها هنا، فبالرغم من بعدنا عن وازسو، أراهن أن أوصافها قد وزعت على كل النول المجاورة. أسرع وكن حذراً».

وانصرف قبل أن محتج مارييل تاركاً إياها لمصالح في الفجري الذي فاق احترامه لقلته خوفه من اليوليس. وانتظر ثوان قليلة كما أمره ثم طلب منها أن تبعه وسعت مارييل أصوات نباح الكلاب

مع صباح الأطفال وصراخ الأمهات الغاضبات وصغير رجال البوليس وثورة الفجر وهرج المعسكر سمعت مارييل ذلك كله بينما كانت تخرج من العربة مع حارسها ويحتملان في الأحراش المحيطة بها. ورغم اختفائها إلا أنها سمعا صوت روم وهو يهذي من روع المعسكر حتى أصبح في الامكان تمييز الأصوات المختلفة. وهذا كذلك رجال الشرطة الذين كانوا يفتشون المعسكر بأصواء كشافاتهم بينما أخذ روم يكلم رئيسهم بأدب ولكن بكبرياء قائلاً له: «إنني مستعد للاستماع لك إذا تفضلت وشرحت لي سبب تهجمكم علينا».

وابتسمت مارييل في الظلام عندما أخرج الضابط ورد بعصية: «فاجأنا أربعة رجال وهم يسرقون الدجاج وقد قبض رجالي على ثلاثة منهم. أما الرابع فقد هرب ونعتقد أنه اتجه نحو معسكركم».

لقاطعه روم قائلاً:

«ولقد انتزع الأطفال والنساء وحتى الحيوانات حاولت الحرب من حظائرها لمجرد أنك تصورت أن لصاً جرى في القمامة. انظر حولك وقل لي إذا كنت تعتقد أن قبيلتي في حاجة إلى تلك الدجاجات المزيلة».

وصحكت مارييل ولكن رفيفها أمسكها وهما يتصوران كيف حاولت النساء الذكيات إقناع الضابط بكلام روم بالكشف عن حليهن الذهبية من أساور وأقراط وعقود لا تستطيع أن تحمل بها زوجة ذلك الضابط في حياتها. وهكذا أفتح أهل المعسكر الضابط بخلونه بأسرع مما كانوا يتوقعون. وعندما جاء روم ملئاً بالاعذار والشك، استغرقت مارييل في الضحك حين قال الضابط:

«لقد ضايقنا منذ أشهر غجر رعاع وأردنا أن نخمد نشاطهم، لكن يبدو

أنا تسرعنا بعض الشيء معكم فمن الواضح أنهم لا ينتمون إلى قبيلتكم».

فقال روم بصوت باسم:

«شكراً يا صديقي! عندما أقابل رئيسك سأنتقل له إعجابي بحكمتك وهي صفة اعتبرها هامة بالنسبة لشخص في موقع المسؤولية مثلك».

وكما كان متوقعاً، تأثر الضابط ولبى دعوة روم ليشاركه زجاجة الشراب. بينما استغل رجاله بارتياح حسن ضيافة القبيلة التي اعتبروها من عداد الأصدقاء. ولفترة طويلة ظلت مارييل قابعة في الظلام في انتظار رحيل الضابط ورجاله. وبمضي الوقت تحول انتظارها إلى قلق وكادت تبكي عندما سمعت الضابط وهو يودع الحاضرين ويقول رجاله بعيداً عن المعسكر وقالت رداً على صوت حارسها عندما رأى روم يظهر لها من الظلام:

«جداً للده»

«حاولت أن أخلص منه قبل ذلك لكنه كان مصمماً على البقاء. انتظري!»

لكنها اتجهت نحوه وكادت تنعثر في خطاها فرفعها بين ذراعيه، وحملها إلى داخل العربة ووضعها على السرير وخلع حذاءها وأخذ يذلك قدميها بمنشفة خشنة ليساعد على سريان الدم في عروقها. وكانت ترتجف بشدة لدرجة أنه تركها لاعداد قهوة ساخنة بالسكر وسفها إليها من بين أسناتها المصطكة. وانساب حرارة القهوة كالنار المذرية في عروقها وأعادت النكهة إليها.

وحينما استأنف تدليك قدميها والمرور بأصابعه على آخر آثار قيود كاليا في قدميها سأله والنعاس يقلب عليها:

«ماذا سيحدث للرجال الذين تم القبض عليهم؟»
«سيوضعون في السجن».

وهل سيتقبلون هذا العقاب كشيء يستحقونه؟
ولم يعجبها ما بدا عليه من ألم وهو يقول:

«ولماذا يتقبلونه؟ أنهم لا يعتبرون أن سرقة الأشياء الضرورية جريمة.
فمثلاً جمع الأخشاب من الغابة يجب أن يكون مباحاً للجميع، وترك
المواشي لترعى في أرض الغير يجب ألا تعتبر مخالفة طالما تنمو الحشائش
فيها بدون مجهود من المالك؛ إن الجشع هو الذي يحول الأخذ إلى سرقة.
وإذا كان كل الناس أمناء يحبون غيرهم مثل الغير لما أصبح لدينا
خوف من المجاعة أو التلوث أو الحرب».

ونظرت ماريليل إليه وساءلت بينها وبين نفسها: «هل الحكمة في
السكوت أم في الكلام؟» ثم استراحت عندما غابت النظرة الصارمة
من عينيه وسمعته قائلاً:

«لا بأس. سيأتي اليوم الذي تنتهي فيه مدة عقوبتهم وستقابل
معهم ثانية. لكنهم لن يفصحوا لليوليس عن علاقاتهم بمسكرنا.
ولذلك تستطيعين أن تطمئني وتعمي بالأمن والسلام».

وبادلتها ابتسامته المشجعة التي وجهها إليها. لكنها في قرارة نفسها
لم تكن ترغب في الأمن. أما بالنسبة للسلام فقد تساءلت عما إذا كانت
ستعرف ثانية المعنى الحقيقي لتلك الكلمة.

٧ - حب أم كراهية؟

أحياناً كان الجنود في عربات الجيش يسرعون بجوار القافلة. وفي
أول الأمركلات ماريليل تموت خوفاً وهي تتصور نفسها وقد سحبها
الجنود من العربة وأدخلوها السجن. لكن مخاوفها هدأت تدريجياً وهي
تطمئن نفسها بأن سرجي إيفانوف لا يعرف شيئاً عن علاقتها
بالتعرج. كان روم معروفًا باختلافاته المتكرر المعتاد من المجتمع.
ومصادفة اختلافاتها من وارسو في الوقت نفسه مع اختلاف روم قد
يحتاج إلى بعض الوقت حتى يصل إلى فهم سرجي الذي يتصف
بالقسوة وليس بالذكاء. وتضايقت كعادتها دائماً عندما تفكر في ذلك
الرجل الروسي وبدأت تراودها الشكوك والخيرة من جهة خالتها. رفض
روم أن يتكلم عن الأحداث التي أدت إلى فرارها، ولكن كلياً ذكر
اسم الخالة لاح على جبينه عيوس ظاهراً، ويان على فمه الغضب مما يدل
على أنه هو الآخر كان قلقاً على صوفي. التي لولا مجهوداتها لصالح
ابنة اختها لأضطرت أن تشرح الكثير لذلك الروسي ذي العينين
النفاذتين.

وبدا على روم كأنه يقرأ أفكارها. لذا أشار إليها أن تجلس
بجانبيه في المقعد الأمامي الذي يقود منه العربة. وبعد تردد أطاعته
وهي تتساءل إذا كان سيصيب عليها جام غضبه خطأ ارتكبته، أم
سيسلط عليها مزيداً من جاذبيته، التي تؤثر في أعصابها أكثر من
كلماته الصارمة.

وأشار إلى شيء بعيد. وعندما تابعت إشارته بعينيهما رأت قصراً

بعيداً وقال لها روم باختصار شارحاً ما رأيته:

«هذا هو قصر براتيسلافنا الذي يشرف على المدينة التي تحمل اسمه
وستذهب إليها الليلة».

ولم يفته ملاحظة الريق الذي بدا في عينيها، وعلق على ذلك
قائلاً:

«بالرغم من أنك لا تحيرون على مقابلة أهل المدينة أو التحدث إليهم إلا
أنك ستشعرين على الأقل بأنك قريبة من المثقفين الذين تتوقين
لصحبتهم».

وكانت مارييل قد نسيت محاولات الياقة في إخفاء مشاعرها
وراء نظائرها باحتقار عسيرته. لكن الواضح أنها لم تفلح في ذلك.
فقالت:

«إنني لم أقصد شيئاً يا روم».

غير أنه قرر الذهاب، فقلل مقاطعاً محاولات الاعتذار

مستذهباً بفردنا، فإن براتيسلافنا هي آخر مدينة نر عليها قبل أن نغير
الحدود وندخل النمسا. يجب أن نغتنم الفرصة لنعرف الأخبار، قد تكون
هناك أخبار عن صوفي».

إذا سيدخلان المدينة خلسة ويعرضان نفسيهما لأعين البوليس
الساهرة لأنه لا يستطيع الصبر على جهله بأخبار صوفي! برزت لها
كل التفاتص التي نسيتها والتي استتجتها مارييل عن خائنها.
وهي أنانيتها وغيبتها واستخفافها بالعلاقات الأسرية. والأكثر من
ذلك كله صداقتها الخائنة لسيرجي إيفانوف، ودفعت مشاعرها الدم
إلى وجنتيها وأرتعدت يداها ومنعت نفسها من توجيه عبارات الاتهام
التي أرادت بها أن ترفع الفاشرة عن عيني روم ليرى مساوي».

خائنها، فهي لا تستحقه بل يستحق من هي أفضل منها. لكنها لم
تجرو على التصريح برأيها، فبالرغم من اضطرابها وغضبها فإنها شعرت
بغريبتها أن من يسمعها تقول ذلك سيستهجها بالغيرة.

وكان قلبها يئن عندما اقتربت عربتها من المدينة في ساعة متأخرة
من تلك الليلة. أما بقية أفراد القبيلة فكانوا يتجهون نحو الحدود،
تاركين وراءهم إشارات وعلامات ليلفظها روم بعد الانتهاء من
مهمته في المدينة ويلحق بالقافلة في محطتها التالية. وكانت هناك نقطة
تفتيش عند حدود المدينة، فعندما وصل بشفة وثبات إلى الحاجز الممدود
عبرها، طلب الحارس السواقف عليها أن يري أوراقها. فاستجاب
روم وجلس في هدوء وهو يصغر بيناً أخذ الحارس الروسي يقلب
صفحات البطاقة التي قدمها له روم. ولا بد أن مظهر مارييل
الأسفت كان مقنعاً للحارس، فقد كان لونها المسمر من الشمس
وتنورتها الزاهية وبلوزتها المفتوحة تضفي عليها شكل العجريات
الأصيلات. أما شعرها الأشقر فكانت تغطيه تماماً بعصابة سوداء، كما
حيأت بأهدابها المسيلة عينيها الرمادية التي لا يمكن أن تظهر فيها
جراً الفجر أما روم المرتدي ملابس رجال الفجر كانت أسنانه
البيضاء تلعب في ابتسامة كلها ثقة وجراً وهو يقول للحارس:

«لا بد يا صديقي أنك رأيت جواز سفر دولياً قبل الآن».

وقبل أن ينتظر جواباً استطرد يقول وهو يتعمد شغل الرجل بكثرة
كلامه:

«أنا وزوجتي من الفجر ويتيح لنا جواز السفر هذا المرور في جميع
بلاد أوروبا، ولا شك أن كل دولة لها نظامها الخاص. ففي فرنسا
مثلاً يطالبوننا بتسجيل أسمائنا في قسم البوليس كل أربع وشرين

ساعة. ومع ذلك ستجد هذه الأوراق سليمة. أما إذا كنت تشك في شيء فنحن على استعداد للانتظار حتى نرجع في الأمر إلى رؤسائك. وشعرت مارييل أن الدهشة بدت على الحارس لفترة وجيزة ثم قال:

«فجئ لا أنهم لماذا يسمحون لأمثالكما بالتجول في أوروبا؟ هيا مرا وحذار من تفوهكما بالفاظ بذيئة».

وأشار بيده ليرفع الحارس الحاجز عن طريقهما، واندفع روج في طريقه في زويدة من التراب الذي أثارته العربة والحصان.

كانت شوارع المدينة هادئة لذا أحدثت عربتهما وهي تسير عليها دويًا كبيراً. وحتى شاطئ النهر بأوائمه الساكنة المصطفة عليه مما يدل على أهمية هذا المرفأ الذي يصدر عنه يومياً أطنان عديدة من الفصح والذرة والسمندر وكلها تنمو في تربة خصبة عند وادي نهر الدانوب. وغاب ظن مارييل في الدانوب نفسه فلم يكن أزرق بل كان رمادياً بلون التراب، إلا أن الشوارع التي اختراقها كانت جذابة. وعندما رأى روج غيطة مارييل تمهل قليلاً ليتيح لها فرصة مشاهدة كنيسة من طراز الباروك يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر وتشرف على حديقة تتوسطها نافورة من الحديد.

وكان المنزل الذي سيفضيان فيه ليشتهما يقع في الحي الفقير المرتفع من المدينة. الحوائث مصطفة على ثلاثة جوانب من ميدان فهمت مارييل أنه يتحول في النهار إلى سوق. وفوق الحوائث تضع مساكن أصحابها وأسرهم. وقاد روج العربة في شارع صغير ضيق يؤدي إلى ساحة واقعة خلف الحوائث. ومن الساحة يصعد الدرج إلى المنازل. ورأيا رجلاً طويلاً يسرع نحوهما من أحد المنازل ويحييهما

بلغة الفجر التي رده عليه روج بمثلها. ونظر الرجل الذي قدمه روج باسم جان بيلسكي إلى مارييل وقال:

«إذا لم تكذب الاشاعات! ففعلاً تزوج صديقي القديم».

وابتم الرجل عندما أرخت مارييل أهدابها من الخجل ولقد انتظرنا طويلاً هذه البشري يا روج. إلا أن حسن اختيارك كان يستحق الانتظار. هيا تشرب نخب الزواج».

وتقدمها إلى مسكنه الذي بدا لها لأول وهلة كأنه يجمع بالأطفال. ولكن بكلمة منه تركوا لعيهم. وبعد أن سمح لهم بتحية الزائرين انصرفوا يهتو إلى فراشهم. وعندما صبت أنا، زوجة جان الجميلة ذات العينين الخزيتين، الشراب في الكؤوس دس جان عملة ذهبية في يد روج وشرب نخبه قائلاً:

«هذا مبلغ بسيط أقدمه لك. لكنني أدعو الله أن يمنحكما الكثير» وأضافت الزوجة إلى كلماته عبارة بلغة الفجر المنتشرة كما لو كانت تتكلم لغة غريبة عنها. وسرعان ما ذاب خجل مارييل بفعل الشراب والجو العائلي وترحاب الزوجين لها. وأنساب الحديث العذب بينهم ليضيف إلى لذة الطعام بأصنافه الشهية جواً حمياً.

وكانت لمناظر المدينة فعل السحر في مارييل. جذبتها منظر الصنابير، والمياه التي تجري في المواسير، وصوت النصحون وهي ترتطم بحافة الخوض، وفهمت أنا مشاعرها الفطرية التي جعلتها تعرض استعدادها لمساعدتها في غسل النصحون.

«طبعاً أرحب بمساعدتك. فلنترك الرجلين يستعيدان ذكرياتهما بيننا نتم نحن بالغسيل والكلام ما شئنا».

وأغلقت أنا باب المطبخ الصغير حتى لا يفسد صوت غسيل

الصحن حديث الرجلين وحتى لا يسمعها أحد.

وكانت نبرة صوت أنا يائسة عندما سألت مارييل أثناء الحديث قائلة:

«أرجو أن تفهمي تلهفي. فإن شيطنتك الواضحة بما حولك يشجعني على سؤالك. هل أنت سعيدة لأنك أصبحت غجرية رخالة، عليها أن تظفي بقية حياتها في الفراخ المستمرة عبر أوروبا في صعبة أناس، بالرغم من طبيعتهم. لا يحترمون الأعراب ولا يتعاطفون معهم».

وعندما أبدت مارييل دهشتها لتدخلها في شؤونها الخاصة قالت: «ما كنت أسأل لو لم أكن أنا أيضاً أجنبية. حاولت في أول زواجنا أن أكيف نفسي لحياة أهل جان لكنني فشلت. فقد كرهتها كلها بشدة، وحتى بالرغم من حبي الشديد لجان، فعندما اكتشفت أنني حامل في طفلتنا الأولى تركته للعودة إلى والدي. هنا حيث نشأت وسعدت بحياتي. حتى أقنعني جان بأن مكان إقامتنا ليس مهماً طالما نحن معاً».

ووضعت الصحن الذي ظلت تشبه في غضبها حتى لمع. وحاولت أن تغالب الدموع وهي تقول:

«أكره نفسي أحياناً لما فعلته. نه. تبعني إلى هنا لكنه ظل معي بجده فقط. أما زوجه فكانت محوم في أوروبا مع قبيلته. هل لاحظت السعادة التي لاحت على وجهه عندما رحب بروم؟ فهو عادة ليس بالانفتاح الذي شعره الليلة. ماذا ستفعلين يا مارييل؟ هل حبك لروم يفوق حبي لجان؟ وهل ستتنازلين طواعية عن أسلوب حياتك وعفائك وسعادتك إذا كان في ذلك أملك الوحيد في البقاء بجانته؟»

وبسرعة جفت مارييل يديها ومدتها لتهدئة الفتاة المضطربة التي أثارها أسئلتها. غير أن مارييل لم تحاول الرد على هذه الأسئلة لأنها شعرت أن أنا تدرك أجريتها. ولكن عندما تكلمت لتهدئ من روعها ظهرت الجدية في عينيها الرماديتين وهي تدرك لفرط دهشتها أنها تواجه الحقيقة التي حاولت أن تتعاشها حتى الآن. كانت تولن بكل خلجة من نفسها. وعن إيمان راسخ، بأنها إذا وضعت في نفس الموقف لتنازلت عن كل شيء وتبع روم إلى آخر العالم. وكان أثر الصدمة ما زال يادياً على وجهها الشاحب عندما انضمت إلى مجلس الرجلين. وحين دخلت مارييل الغرفة لاحظ روم على وجهها علامات القلق. وفي الحال وقف وقطع حبل حديث صديقه بقوله:

«إن زوجي متعبة، لذا أرجو أن تسمحا لنا بالاعتكاف في غرفتنا. وفي الصباح سأكون قد تذكرت الكثير من أنباء أقاربك وأصدقائك».

فلمق جان على جبينه وقال:

«كم أنا عديم التفكير! إنك تعرف مدى لفتني على شؤون أسرتي وقبيلتي. كان يجب عليك يا روم أن تنبهني إلى واجبي كمضيف لكما».

والنفت إلى مارييل واستطرد بقول:

«أرجو المعذرة يا عزيزتي لأنك تبدين فعلاً متعبة. إن غرفة النوم التي نخصصها لكما صغيرة لكننا مريحة».

وكانت الغرفة فعلاً صغيرة جعلت مارييل تصبح متدهشة وهي تفتح الباب بصعوبة بسبب السرير الكبير الذي يملأ الغرفة كلها تقريباً ولاحت ابتسامة على وجه روم عندما رأى الفرحة يادية على وجه

مارييل وهي تنظر إليه باستغراب. وسرعان ما عولت نظرها عن وجهه وتسلقت السرير ذا المراتب المنة المحشوة بالريش بكل الثبات الذي تستطيع السيطرة عليه. وعندما أغلق روم الباب وانفجر ضاحكاً همست قائلة:

«أخفض صوتك. ستقلق الأطفال في نومهم».

وحاول أن يسيطر على ضحكته قائلاً:

«ليتك ترين تعبير وجهك. فشكلك مثل العانس الغاضبة التي تواجه لأول مرة في حياتها. فكرة السباح لرجل بفاسستها فرائشها. إن مساحة العرية أقل من مساحة هذه الغرفة. إذاً لماذا هذا الحجل والتدلل فجأة؟» وكان يعرف تماماً أن سريها في العرية يختلف تماماً عن السرير الوثير الذي سيقتسمانه. والذي معها حاول فيه الثبات أن يظلا بعيدين عن بعضهما. فإن ليونته سرعان ما جعلها يتدحرجان ويستقران معاً في وسطه.

واستاءت لمزاحه إلا أن ردها جاء خالياً من مظاهر الهيبة والكبرياء. وحاولت أن تظل جالسة عندما ألقى بنفسه متسداً على السرير. لكنها هبت بغضب من جلستها وجثت على ركبتيها وحلفت فيه قائلة:

«يجب أن تبحث لنفسك عن مكان آخر تنام فيه فأنت لا تنوي طبعاً أن تنام هناك».

«ماذا؟ وأترك أصدقائي يظنون أن هناك خلافاً بيننا؟»

وابتسم بهزاء وقال مؤثماً إياها:

«كلا يا حبيبي. فهنا تضايقتا من قربنا من بعضنا يجب علينا أن نتحمله بروح طيبة فلا أعيب أن يبدو غير راضين عن ضيافة أصدقائنا».

وكان يرقبها وعيناه نصف مغمضتين وقمعه جاد ومع ذلك شعرت أنه يخلد من إغاضتها ويحاول إخفاء ذلك. وانتابها الخوف عندما أظفأ النور بحركة سريعة وجذبها إلى جانبه. وأخذت يداه تداعبها محاولاً تهدئتها. لكن عضلاتها ظلت متوترة فهمس قائلاً:

«من الذي سيعلم أننا استمتعنا ولو ليلة واحدة بحفنا في الظروف التي فرضت علينا؟»

وسرعان ما أسكت ردها بحركة منه سلية مارييل أي تفكير في المقاومة. ولم تتطرق بكلمة عندما ضمها إليه بحنان وجعلها تشعر بأنها في سجن جميل مبطن بالريش الناعم نعمة خلجات قلبها.

ثم نظر إليها متعجباً من هدوئها. وحاول أن يفهم غرض رد فعلها. ولوهلة قصيرة قاومت مارييل خجلها فلم تكن قد تخلصت بعد من التحفظ الذي ورثته عن أبيها الاتكليزي. لكنها بتنهيدة مدت يدها وجذبت رأسه إليها. وفجأة شعرت من أنفاسه مدى الدفءة التي انتابته. إلا أنها ابتسمت في سرها. وبعد فترة قصيرة من السكون ابتعد عنها وبحركة رشقة نهض من السرير. ووقف بجواره ينظر إليها في الظلام ويقول:

«أسف يا مارييل. جرحني المزاج وغلب عليّ ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

وكان هذا الاعتذار الجاف مثل السكين الذي يطعن الحب الوليد. الذي شعرت به نحوه لكنه لم يفلح في إخماد نار الندم التي اشتعلت في ثوان. ثم لمحت تاركة حواسها هامدة. ولحسن حظها أنها لم تفسد النور. بحجة نفسها آلام رؤية وقع الاقصاد عن مشاعرها على وجه روم. خاصة وأنها كانت تنسخر من مشاعره من قبل. وتعبت كيف أن السخرية تآلم أكثر من الصد. وقالت لنفسها إن كبرياءها هي التي

وارتعدت من الصوت المشرب بالحجل، ثم سقطت على مشاعرها لتضحك وتقول:

«أنا التي يجب أن تعذر يا روم، فإن الاغراء بجاراتك في تشيليتك كان أقوى مني، مرة قارنت بيني وبين فتيات قبيلتك، ولم تكن المقارنة في صالحني، فلا تلومني لأنني حاولت أن أدافع عن سمعتي عندما سئلت لي الفرصة».

وفي فترة السكون التي تلت كلامها شعرت بحدة الغضب التي لا يمكن أن يضاهيها غير لكمة السوط على الفم. ولأول مرة في حياتها احتضت وراء درعها الخفي وهو جسدها، إذ لا يستطيع أن يؤذيها جسدياً إلا أنه لن ينسى أبداً كلامها. وسوف يظل يفكر كما فكر في آثار الجروح التي أحدثتها قسوة كاليا عليها، حتى أنه الآن وبعد أن التأمت آثار الجروح يستطيع أن يتلمس مكانها.

وشعرت ببعض الراحة لأنها على الأقل حفظت كرامتها، حتى ولو كان ثمن ذلك احتقاراً ملبوساً امتد عبر الحرة التي تفصل بينها. لن تكون هناك فترات أخرى من الحنان الذي يصل إلى حد التعذيب. لن تكون هناك نظرات سريعة متبادلة تنتزع قلبها من بين ضلوعها، فمخالب الأسد تنهش حتى ولو كانت مدهونة بالعمل. أما الجروح التي تحدث من الغضب فيكون تلافئها أسهل من الاهانات لأنها شجي. مستترة بالرقعة. وتحرك روم نحو الباب وحيست مارييل أنفاسها متوقفة منه لسعة وداع، لكنه اختفى بدون كلمة تاركاً لها الفرصة لتبكي بمرارة وحدها.

٨ - رصاص ودما

تحت بيت جان مقهى استعمله مصدراً لقوته هو وزوجته، وكانت أنا تعد فيه الطعام ويقيم جان على خدمة الزبائن. وفي اليوم التالي عندما اقترح جان لاصطحاب روم لمعرفة الأخبار في المدينة، تدخلت أنا وذكرته بأن أصغر اولادها يحتاج لرعاية أثناء عملها. واختار جان ونظر إلى الوجه الصغير الملوث بالربس وقال:

«تيت أمر بيثا الصغيرة».

واقترح روم قائلاً:

«سترعى مارييل الطفلة، فمن الخطر عليها أن تصحش في الشوارع نهاراً».

وعندما التفت الأنظار نحو مارييل، توردت وجنتاها لكنها هزت رأسها موافقة على الفكرة، فهي ترحب بأي اقتراح يبعدها من روم. ودلت نظرنه على أنه قرأ أفكارها فألقى عليها تحية مقتضية عبر الفقرة وخرج مع صديقه.

وارتاحت مارييل عندما تركها روم وحيدة مع بيثا الصغيرة، بينما اشغلت أنا في خدمة زبائن المقهى الذين يطالبون القهوة والكمك حتى يحضر رواد الغدا من المكاتب والمحلات التجارية ويشغلوا جميع المقاعد وعلى الفقرة يحديثهم المرح. وتناقت مارييل إلى الانضمام إليهم، والاستماع لحديث الطفلة أو لحوار رجال الأعمال الجالسين حول المائدة وكأنهم يتكلمون عن حدث هام، لكنها أخذت تقوم في الخارج وهي لا تجرؤ على الظهور أمام أحد. وإذاعات

«كرتلك أيتها الرقيقة».

تتمت بكلمات الشكر وفرت هاربة بمجرد أن أخذتها، واستدار لينجلس عندما جذبت بيثا من فرحتها رباط رأس مارييل تاركة شعرها الأشقر يتهدل على كتفيها، ورفع الضابط رأسه ودق فيها النظر، ولكن قبل أن يستجربها رفعت مارييل أطراف ثوبها وهربت إلى المنزل ووقفت ترتعد وراء الباب متوقفة أن تسمع وقع أقدام تتبعها...

وعندما عاد روم و جان أكلت معها، واستمعت إلى حديثها وفكرت هل تخبرها بالمحادث؟ وبأنها عصت تعليمات روم حين أمرها ألا تظهر للناس. ولم تشجعها الجدية البادية على وجهه على الاعتراف. وبعد فترة من الصراع قررت أن تلتزم الصمت. وجاء صوت جان مبدداً لتفكيرها:

«لدينا أخبار سارة يا مارييل. ذهبنا إلى مكتب البريد لتسلم بريد الغير ووجدنا عدداً كبيراً من الخطابات باسم روم. وبالنظر إلى خاتم البريد عرفنا أن معظمه مرسى عليه شهرور وهو في المكتب».

وتوقف برهة متوقفاً أن يكمل روم القصة، ولكن عندما وجده مستمراً في الأكل لم يأنه بل تابع كلامه قائلاً:

«ثم ذهبنا إلى بعض مراكز الاتصال وقيل لنا إن شخصاً مثلاً يحاول الاتصال بروم تليفونياً لمدة أسابيع، لذا اتفقا أن يتكلم عصر اليوم ونحن متأكدون أنها أخبار صوري».

وتهدت مارييل وقالت:

«هذه فعلاً أخبار سارة ولا بد أنك تتوق يا روم لتلقي هذه المكالمات وأرغمت أهدابها وانتظرت رده وتضايقت من سكوتة. وحتى جئت

الطفلة عصبية كلها طال بعدها عن أمها، فحملتها مارييل إلى الفناء لتعربها على اللعب، ووجدت كرة اشغلتها بها لمدة نصف ساعة وكانت أنا تظل برأسها من النافذة من أن لاخر لتشارك في مرح الطفلة وتطمئنتها بروجوها. وحدث أن شئت الأم انتهاء مارييل فلم تلحظ أن الطفلة أخذت تلعب بالكرة وهي تتبعها نحو المقهى الملاء بالرواد.

وكانت كل الأبواب مفتوحة على الفناء. فعندما لاحظت غياب الطفلة أخذت تبحث عنها، لمعنها وهي تفك على عتبة باب المقهى، فبادتها قائلة:

«ارجعي يا عزيزتي بيثا».

لكن الطفلة تردت وبهتسامة مأكرة دفعت بالكرة وأدخلتها بين رواد المقهى، فضحكت مارييل وأسرعت نحوها وهي تقول:

«أيتها الشيطانة»

وبدون تفكير حملت الطفلة وأسرعت بالنقاط الكرة، إلا أنها تنهت إلى غلظتها بعد فوات الأوان. وبعد أن تحولت جميع الأنظار إلى وجهها المصطبغ بحمرة الخجل. وإلى الطفلة وهي تحاول التخلص من ذراعيها. وأخذت تتراجع وهي تحمل الطفلة بيثا تركت فكرة استعادة الكرة. وقام رجل من مقعده المجاور للكرة فالتفتها واتسرب من مارييل والطفلة. وعندما سقطت أشعة الشمس على أزوار زيه العسكري وعلى جلد حذائه الطويل، شعرت بالخوف والاضطراب فقد تعرفت على الزي العسكري الذي رآته لأول مرة على سرجسي إيفانوف. وقدم الكرة قائلاً وهو يصك حذاءه معاً دون أن ينظر إلى وجهها:

لاحظ أنه لم يوجه إليها إلا عبارات مقتضبة منذ الليلة السابقة. كما لاحظت هي أن الجو بينها أصبح متوتراً بحيث تمت لو كلمها ولو بالفاظ اللوم، وانتفضت عندما سمعت إبعاد مقعده عن المكتبة لكنه تجاهل سؤالها وأشار للساعة وقال لجان:

«ستأتي المكالمات الساعة الواحدة والنصف. والساعة الآن الواحدة، يجب أن أذهب فشكراً يا صديقي على حسن ضيافتك. وللأسف يجب أن حل بمجرد يومي، المكالمات وأرجو ألا تطول مدة فراقنا. وأن تفتح أنا. الانضمام إلى قياتنا ولو لفترة قصيرة حتى تستطيع أن تهدد صداقتك تسعد أقاربك بحضورك».

وأخفى جان اشتياقه إلى هذه الزيارة فقال:

«تعلم يا صديقي أنني اعتدت على حياة المنازل فلا أستطيع فكرة كسر طبقة الثلج من أجلي قبل أن أغتسل بها. كما لا تتحمل عظامي التي اعتادت الفراش الوثير النوم على الأرض بعد نومي على المراتب المحشوة بالريش، واستمر روم في محاولاته مع اتهامه برد صديقه: «هل أفهم أنك راض عن حياتك؟»

وبحسب مارييل أنفاسها لتسمع للرد الذي تنوي أنا إلى سماعه لكنه قال:

«لا الفقر ولا الثراء يتركبان الإنسان سعيداً. أما تمت سقيا هذا الميت فترجع السعادة التي أصبحت من نصيبي».

وكانت إجابته حلاً وسطاً لموقفه، إلا أن روم صافحه وتبادلا نظرة تحمل الكثير في طياتها واقتربا دون تعليق.

وظل جان في المقهى فيما عاد روم إلى مكان الاجتماع انتظاراً لمكالمة صوفي. وقررت أنا أن تستريح في المنزل مع مارييل.

وكانتا تتبادلان الحديث وتتناولان القهوة عندما سمعتا أصواتاً آتية من المقهى. فانتفضت أنا واقفة ونظرت لمارييل بينما سمعتا صوت جان وكأنه ينلرهما:

«نعم أيها الرقيق. كان لدينا غريبان حضرا ليلة أمس يستجدهان طعاماً فغطت عليها زوجتي وقدمت لها وجبة وسريراً مقابل قيام الزوجة برعاية طفلتنا بينما عجل الزوج في المطبخ. وقد رحلا من ساعة وقالاً إنها سيعدون إلى قياتها وأجهل وجهتهما».

وعندما وجه إليه مستجوبوه سؤالاً رد جان بصوت أكثر ارتفاعاً: «سيدة انكليزية؟ لا بد أنك محطى». هل رأيتموها هنا في المقهى؟ ألم تكن سمراء؟»

فلارتعت مارييل ورفعت يدها تلمس بها العصابة التي تغطي شعرها الأشقر. كم هي غريبة لاختفاء مهابتها للضابط الروحي! ولو ذكرت الحادث لأستعد جان يرموه مقنعة؟ لماذا لو دخل المقهى وأثبت كذب جان وطرأت الفكرة نفسها لأنا فأمسكت مارييل وناشتتها بإيجاد حل للمأزق.

حينئذ، وكأن الله استجاب لدعائها، سمعتا روم يقود العربا داخل الفناء فلتحت به مارييل وقالت وهي تلهث: «جنود... بالمقهى»

وبسرعة انتزعها من الأرض وأجلسها بجانبه وضرب الحصان بالسوط وانطلقا نحو حدود المدينة، ولم يتسع الوقت لتوديع أنا وهي واقفة تراقب ما يحدث من وراء الستائر. وعندما التفتت مارييل إلى الوراء رأت جنديين يظهران في الفناء. وسمعت صيحة ثلثها صفارة عندما رأى الجنديان العربا وهي تصرع ميتة عن المنزل. لكنها لم

تشعر بالخوف لأنها قد ابتعدت مسافة كافية ليتفاديا إيقاع النك بأصدقائها.

وكان الكلام مستحيلاً بينها بسبب أصوات حوافر الحصان وسرعة العجلات. لذا تشبث بالعربة متحيلة ميلها ومطبات الطريق. حتى أن أسنانها ضغطت على لسانها فأدعت.

وعندما جادت الطلقة الأولى كانا لربيعين من الأشجار. تشعرت بخوف سترها في مكانها بدون حركة. حتى مد روم ذراعه وجذبها ضاحكاً:

«التي ولا تخافي، كدنا نصل إلى بر الأمان».

وعندما مرت وصاصة أخرى بجوار رأسه جزعت مارييل. إلا أن روم قلد الحصان بأقصى سرعة محاولاً الدخول إلى الأشجار ليحتسي فيها. وتفتت مارييل الصعداء عندما دخلا بين الأشجار وأصبحا في أمان. وظل يتوغل في الغابة إلا أن كثافة الأعشاب جعلت التقدم مستحيلاً. لذا قفز من العربة وأشار إليها أن تتبعه، ثم ربت على الحصان وتركه يعود من حيث أتى.

أمسك روم بذراع مارييل وأخذا في العدو، وسمعا أصداً أصوات بين الأشجار عرفا منها أن هناك من يتبعها عن قرب. ولمدة ساعات حاولا اختراق الأشجار الكثيفة فكانا يتعثران ويتعرضان لوخز الأشواك التي تشبه الأقاعي في لدغها. وأخيراً شعرا أن المطاردين قد ابتعدوا عنها. وكانت دراية روم بالغاية وحسن نظره وحكمته خير عون لها. وفجأة توقف روم عن جريه وتصيح مارييل بالراحة. فأطاعته وهي مطمئنة إلى أنها في أمان.

ثم ارتقت على الأرض المغطاة بالمشائش وراحت تدلك وجنبيها

بالأوراق الناعمة، شعرت بدقات قلبها وهو يلامس الأرض. وعندما هذا الصوت واسترخت عضلاتها قالت:

«هذه غلظتي يا روم. شعرت وأنا في المفى هذا الصباح أنني أثرت شك أعد الضباط لكنه ترك المكان دون أن يقول شيئاً ولم أظن أن الحادث بالأهمية التي تجعلني أذكرها لأحد».

فصرب نظراته إلى وجهها وقال:

«لم تظني أن الحادث هام».

وجاءت كلماتها بطيئة معبرة عن غضبه ودهشته. فارتبكت وترسلت إليه بالأذى يسو عليها. وتوقعت أن يشور عليها. لكنه من فرط تعبته تهدأ وترك جسده يستريح قائلاً:

«بعد بضعة أميال ستكون في أمان. هذه الغابة تقع غير الحدود. دخلناها في تشيكوسلوفاكيا وستتركها في النمسا».

ثم استدار ليواجهها واستطرد يقول:

«يجرد وصولنا إلى هنا ساعيدك إلى خالك الموجد هتاك منذ أنايح بانتظار أخبارك».

فرددت كلماتها بدعشة وقالت:

«خالتي في قينة لكن... كيف... ولماذا».

«كيف... بالطائرة... ولماذا... لأنه مجرد معرفة سيرجي إيفانوف بتحركاتها لم يعد لها أمان في وارسو».

«أتخني أنها اضطرت إلى ترك بيتها وعملها وأصدقائها بسبب تذبذبها لفراري».

قال:

«لقد ظلمت خالك كما ظلمها الكثيرون».

وأثارت الغشة التي بدت عليها غضبه وحفرته على الاستطراد في كلامه:

«إنها أكبر مني بقليل، ولكنها لم تكن قد تعدت مرحلة الطفولة، بعد عندما اندلعت في منظمة، هيأت الحرب إلى الحرية أمام آلاف اللاجئين وجاءتها فرصة الحرب مراراً لكنها فضلت البقاء حيث اعتقدت أن الناس في حاجة إليها، أي في وارسو، وخالتك تتعاضد العطف، واستطاعت بالصدقة القائمة بينها وبين سرجي إيفانوف وأمثاله، ادخال تعديلات خففت العبء عن كاهل الذين تتعاضد معهم، وهم الطبقة العاملة الذين أصبحت حياتهم جرداء، لا تختلف عن حياة الحيوانات».

فخرجت وسألت:

«هل فعلت خالتي هذا»

فرد عليها وقد أثارت غضبه:

«وأكثر من ذلك. صوفي ساعدت على قيام ثورة بيضاء، جعلت بعض الذين كانوا يذكرون في الحرب يعدلون عنه، ويقفون لمعاونتها في النضال من أجل إبقاء العادات القديمة استعداداً ليوم التحرر الحقيقي».

واتضح لها كل شيء.. فقالت:

«وأنت الذي عاونتها! أنت وقيلتك كنتم طريق الحرب الذي ذكرته. الآن فهمت سبب ولاء عشيرتك لخالتي، كما فهمت نتيجة عنادي! لقد أفسدت كل ما عملته من أجل تحقيق رسالتها».

وودت مارييل لو دقت نفسها من الحجل، ولم تطلع نظره القاسية في التخفيف عنها، استمر يعم في إيلاها غير أنه يعينها

العذبتين.

«أليس صدفة غريبة أن سبيل الغروب الذي وجد لقرار والديك أساساً قد حطته ابنتها»

ولم يرحبها روم ولم يكتف بتعذيبها، فشعرت أن لا شيء يحو الضرر الذي ألحقه بخالتها، وحتى اعتذارها وما يجعله من ثم لن يكون غير الأمان في آلامها.

ولم يلاحظ أنه عب والفاً ورفع رأسه وكل حواسه منبهة إلى رائحة الدخان وأصوات الفرقة في العشب والسحب الزرقاء التي التفت حولها وقال:

«حريق! إنهم مصممون على شيتا أحياء. وجذبها وأوقفها وهو يبعدها عن الخطر المحيط بها وأخذها يجران عبر الأشجار مبتعدين عن السنة اللهب».

وخرجت أمواج من الحيوانات والطيور الخائفة من وسط الحشائش وهي تصرخ وتطير يتناقل، مثلها تطير عندما تسمع الرعد الذي يسبق العاصفة. وكانت النيران تنتشر بسرعة، وأخذت تسيق خطاهما في أماكن لم يتوقعاهما وصاح روم وهو يجذبها عبر الغابة التي تحولت بسرعة إلى فحج محكم:

«يجب أن تتبع الحيوانات فهي متجهة نحو المياه، يوجد نهر هنا ونرجو الله أن نصل إليه في الوقت المناسب».

وكانت مارييل متعبة تحاول ملاحقة خطواته السريعة، وهي تسمع النار تقترب منها وتلتهم كل شيء في طريقها وكانت الحرارة عنيفة، والهواء خائفاً يحمل رائحة الاحتراق. وفجأة تعثرت مارييل ووقعت على الأرض، لكن سرعان ما جذبها روم ثانية لتقف على

قدميها وأخذ يدها ويدفعها للأمام فهمست قائلة:

«إنني لا أستطيع يا روم... استمر في طريقك يدوني».

واحتجبت عندما رفعها من الأرض بين ذراعيه واستعطفته قائلة:

«كل...»

وانسابت دموعها على خديها وحاولت أن ترغم روم على تركها
وانشده أن ينفذ نفسه دون تحمل عبئها، إلا أن الدخان غمر رثنها فلم
يخرج من حلقها الجاف وشفتيها المشققين عندما داهمها ظلام الالهام.

وأماقت على الماء الذي كان روم يشربه على وجهها، وعلى صوته
القلق وهو ينساب إلى فده غيبوبتها كان ملحاً ولفاً حتى أنها فتحت
عينها رغم إرادتها لتتأكد من سبب غياب غضبه المعتاد، ورأت في
الوجه المتحني عليها علامات القلق، وارتاحت عيناه عندما نادى
اسمه، وهست قائلة:

«هل نجونا؟ وهل لحدت النيران؟»

«لا تقلقي يا عزيزتي عشنا على النهر وأرجو أن تنطفئ النار عندما
نصل إلى الشاطئ». لكننا لا نجرؤ على العبور خوفاً من أن يجعل الهواء
شرراً إلى مسافة تسع يانتشار النار، يجب العثور على مكان في النهر
يغطيها بالماء، وننتظر فيه حتى نتأكد من سلامتنا قبل التجازفة بخوض
الجزء الأخير من رحلتنا».

وفكرت: هل يوجد شيء آخر مزيل عن المشاعر المتضاربة التي
تنازع روم وتبدو على فمه الخالي من العصب؟ لذا بدت عليها
الدخلة وهي تنظر إليه:

«وماذا عن الجنود؟ هل سيعطيهم تأخرنا فرصة اللحاق بنا؟»

عاد العيوس إلى ملامحه وعز رأسه وقال:

«كلنا قرارنا حكيماً، فلن يصدقوا أننا مازلنا أحياء ولا بد أنهم يحتفلون
الآن بنجاح عملياتهم».

ومما أكد خطورة موقفها وتوقع جذع شجرة بالقرب منها لجذبها
روم وقال:

«تعال، لقد قلدنا في التقليل بنجاحنا، وأن الآن وقت السياحة
وأمسكها وقادها فوق الصخور حتى وصلا إلى بركة في أعنى جزء
بالنهر، وعندما غاصا فيها، تصاعدت الفقاعات ووصلت المياه إلى
رقبتيهما، وفجأة اصططبت المياه بالاحمرار حينما اشتعلت النيران في
الصف الأول من الأشجار على الضفة المقابلة، واندلع اللهب بلونه
الأصفر والبرتقالي».

أخذاً يرفيان النار والماء حولها كالدم المراق ورأيا الطبيعة تلفها
بألسنة النار في ثوانٍ، فبالسرعة التي يولد بها عود الشفاب انهارت
عماقة الغابة وأصبحت عصياً قصيرة من الرماد. أما وهج الحريق
فأخذ يقترب منها ويحاول التهامها، وبخوف شديد راقيا اللهب عن
بعد وهو يلتهم الأشجار على الشاطئ الآخر، ودخل الدخان في أعينها
وحلقها واضطرا أن يغوصا في الماء حتى وصل فمها إلى سطحها.
وعندما هدأت حدة الحريق كانت ماربيل قد استنفدت قواها،
ولم يبق لديها إلا قدر بسيط من قوة الإرادة لتطيع بها روم عندما
أمرها قائلاً:

«هيا بنا، فلم تصل النار للضفة الأخرى بعد».

ورغم معارضة لها، سحبت قدميها بصعوبة، فملاستها المبتلة كانت
تعوق حركتها، وصيرت إلى ضفة النهر الأخرى. وعندما وصلا إلى هناك
اوقفت على الأرض طلباً للراحة، لكن روم لم يسمح لها بذلك، فركع

بجوارها وشجعها على الاستمرار في السير واضعاً أصبعه تحت ذقنها وهو يقول:

«كنت شجاعة يا عزيزتي. لكنني مضطر أن أطلب منك بذل جهد أكبر. فعلى بعد أميال قليلة تقع حدود النمسا. والحراسة الروسية تنشط على الحدود. لكنني متأكد أننا ستفادها إذا بقينا في الغاية. إلا أنه من الخطر أن نتأخر هنا. أرجوك محاولة المشي لفترة قصيرة».

كان صوته من التروع الأمر. فرغم وجود رغبة تدفعه إلى الوصول إليها. ورغبة بتسني بها التخلص منها لأنها سببت له المشاكل. إلا أن ابتهامته شلت إرادتها ورفعته إلى قدميها. واعتزتها توبة من الشاعر الطاغية عندما دس يده في يده. فبمعجزة اختفت صراخته. وشعرت بالندم على الاساءة إليه. وسمعت الله أن النار قد طهرت الحقد والكراهية في نفسه.

وأخذاً يشيان بين الحشائش الطويلة التي تخفي في طياتها كتيبة كاملة. وعثرا على محر دكتة الأقدام بحيث فتحت طريقاً في الاتقياء الذي يريدانه. لكنها لم يجرؤا على المشي فيه خوفاً من مقابلة دورية الاستكشاف عند أحد التحنيتات. وثبعته وهي تضع قدمها في موقع قدمه وتعنصر على الجذور المخيطة في الأرض خائضة من أصوات الحيوانات وحركاتها المفاجئة. انها تجددت في مكانها عندما وصلت إلى الأعشاب التي تصل إلى كتفيها. وأخذت تنصت لصوت تكسر جذوع الأشجار. وزرققة بعض الطيور وهي عادة تنثر بالخطر.

ولابد أنها قطعاً أميالاً كثيرة عندما طلب روم منها التوقف لاطمئنانه للمكان الذي كانا فيه. وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله ويضفي على الأشجار منظرأ رهيباً. ارتعدت ماريليل وهي تتصور

أن أعينا خفية تنظر إليها. ثم اقتربت من روم الذي كان ينصت لصوت أية حركة حولها. ولما اطمأن لعدم وجود شيء جلس على الأرض وابت على مكان بجواره لتجلس عليه وقال:

«اجلسي هنا واسترخي فإن أسلاك الحدود على بعد ياردات قليلة من هنا. ولكن بما أنه مكتشف من الناحيتين بأرض فضاء فيجب أن ننتظر حتى حلول الليل قبل أن نجازف بالعبور».

وقال لها بهذوه رداً على دهشتها:

«الروس يغتشون هذه المنطقة ليل نهار. ولابد من مجازفتنا بالعبور. فهذه هي الطريقة الوحيدة أمامنا».

وقدجأة أخذت أستاذتها تصطلك. فجذبها للأرض وأحاطت كتفيها بلزاعه وأخذ يطمئننها. وفي أول الأمر لم تبع كلماته. إلا أن صوته كان رفيقاً. كما كانت ذراعاه مرعجة وسرعان ما شعرت بالدفة والهدوء. وشجعها اهتمامه فسأته:

«هل نظن يا روم أن أنا و جان سيكونان سعيدين في يوم من الأيام»

وشعرت بعلامات ضيقه وعرفت أنه كان قلقاً على صديقه وأن جوابه سيكون دليلاً على رأيه في زواج العجبري بأجيبية. وهو رأي له في نظرها أهمية كبيرة. فإنها لم تتصور كيف تستطيع خالتها. ربيبة المدينة أن تكيف نفسها لتلائم أي زوج حتى ولو كان مثل روم. فإن استعداداه لتغيير أسلوب حياته يدل على مدى الحب الذي سيضفيه على زوجته. وبعد فترة قال:

«رأيت أن على الزوجة أن تتكيف مع زوجها. لكنني الآن لست واثقاً من هذا».

وعندما أبدت دهشتها، قال:

«إن نصيحة جان ترخي كفة أنا والأطفال، فقد يتنازل برضا
عن الراحة التي يشعر بها في منزل مستقر ويتنازل عن المال، ولكن
حياة الفجر الحرة وصحية أهله لا تعوضه عن حرمانه من أسرته أو حنان
زوجته. فإن الرجل يتم بذلك التفاهم وتلك الروابط التي تجمع بين
الرجل والمرأة بحيث يتعاونان أمام الصعاب. وهناك رجال لا يصلون
إلى هذا الارتباط ومنهم من يستعدون لقضاء حياتهم وحيدين بدلاً من
قبول شيء لا يرضونه. ولكن إذا عثر رجل على شريكة تتنازع حياته
مثل جان، فلا شيء يفرقه عن التي اختارها لتكون والدته لأبنائه،
وكانت مارييل تتوقع رداً أميناً. لأن روم يتصف بالأمانة،
لكن الجديدة التي تكلم بها أحيث الأمل في نفسها. وشعرت بغيرة وحقد
يصلان إلى حد الكراهية نحو خالتها التي أثار هذا التصور في
الرجل الذي أحبته بقوة، وانجبت العبرات في حلقها وهي تواجه حقيقة
حيها لروم، محاولة أن تكون مثل أمانته في الانصاح عن شعوره. ترى
منذ متى أحبته؟ وشعرت أنها أحبته طويلاً حياتها. فعندما دخل في
عملية المفاوضة لينالها كعروس له. حصل على صفقة رابحة. لكنه لن
يعرف أن قطع الذهب القليلة التي استبدلها بها قد جلبت له حياً يفوق
كل شيء.

وفرجت بالظلام عندما جاء. ففقد أخفى رجشة شغفها. كما منع
روم من فهم النظرة التي رآها مراراً في أعين المخلوقات الحبيسة في
القبابة.

وعندما قلن على سكرتها قال هامساً:
«هل أنت نائمة؟»

فهزت رأسها وهي تخشى أن تفضح مشاعرها بصوتها، وشعرت
بالخرج عندما سألتها:

«وماذا عن وجهة نظر أنا؟ هل تيلين إلى التعاطف مع حاجتها
للاستقرار، أو تعتبرين سعادة زوجها في المكان الأول لو كنت في
مكانها؟»

ونسي أهمية الخذر في كلامه وقال بصوت خشن:

«طبعاً هذا سؤال أحمق أوجهه إلى شابة انكليزية منحررة، تعتبر
الحرية أمراً هاماً، أليس كذلك؟»
ثم ضحك بدهشه وقال ساخراً:

«ملنا أفعل بك أيتها العصفورة الصغيرة التي احتفلت بحريتها
الجديدة فطاروت إلى عش النور؟ كيف أراك تاضلين في عالمنا المتعد
دون أن أرغب في حمايتك؟»

وساد السكون ولم تسمع زقزقة طائر أو حفيف ورقة. وحتى اللبر
كلا يتوقف في محاولته الاختفاء وراء السحب خفية سباح ردها.
وبسرعة انطفأ نوره تاركاً الغاية في حالة إنذار. سمعت من خلاها وقع
أقدام فهتت أنها الجنود ولم تكن مارييل بحاجة إلى أن تنطق بأية
كلمة لخرج من حلقها الذي توترت عضلاته. وظهرت قطرات العرق
على جبينها بينما انتظروا اقتراب الأقدام منها. وسعها صريراً يقول:

«إننا نضج وقتنا، فلا يمكن أن يخرج أحد من هذا القرن حياً. انظروا
كيف تعكس السماء حمرة الأشجار المحترقة.

ورد عليه زميله بحدّة:

«ومع ذلك سننقذ تلياننا، فإن الاثنين اللذين نبحث عنهما غير يان
يحيان فن البقاء على قيد الحياة.

وتوقفت الأقدام عند مفترق الطرق.

«الجه أنت إلى اليسار وسأمشي أنا في هذا الطريق. المتح عينيك وأطلق الرصاص عند سماع أية حركة».

وسمعا صوت وقع أقدام أحد الجنديين وهو يتعدى عن المكان، ولم يجهزوا على التحرك وهما قابعان على الأرض بين الأعشاب، فإن أية حركة من إنسان أو حيوان كانت كافية بأن ينهال عليها الرصاص من بندقية الحارس القريب. وسمعا صوت ثقاب يمتك بعلبته، وأزاح روم الأعشاب ونظر من خلالها فرأى رجلاً أدار له ظهره وأحس رأسه وأخذ يتفح في كفيه، ولم تلاحظ مارييل أن روم قد تحرك حتى وقف خلف الرجل وبداء بمحذاتان استعداداً للأطلاق على عنقه. وأخذت ترتقب في صمت المنظر الذي يبدل على أنه صمت على ممارسته. وانقض روم على الجندي وضغط بأصابعه القولاذية على فصيته الموائية حتى هوى إلى الأرض فاقداً الوعي.

وجذب مارييل من بين الحشائش واتجهوا نحو السور مسرعين، وبهم جاف من الذعر أبعدت من ذهنها تصرف روم الجري وأطاعته وهي ترتعد من الخوف.

كان السور بارتفاع ثمانية أقدام، وثبت فوقه الأسلاك الشائكة. وعلفت بها هنا وهناك قطع من قماش ثوب كدليل على محاولة شخص لم يسمعه الحظ بالفرار. ومال روم على أحد الحواجز، وبند صنت الليل صوت للمقص الذي استخدمه في قص الحاجز وقجاة صاح جندي من ورائه قائلاً:

«توقف»

استدارت مارييل لتسرى ضوء الفسح يسطع على البندقية

المصوبة نحوها، كان الجندي الثاني قد عاد وأثار غضبه اختفاء زميله وزاد من إصراره الوحشي على الانتقام. وجهده وقف روم وكأنه يستسلم للقبض عليه وهو على وشك الحرب، لكنه واجه الجندي وأدار ظهره للفتحة التي أحدثها في السور. وأخذ يرفع يديه فوق رأسه. حيثما اطمأن الجندي، وفي تلك اللحظة بالذات، رفع روم المقص وضوبه بسرعة الصاروخ نحو رأس الجندي، فضغط الجندي بأصبعه على زناد البندقية في الوقت الذي سقط فيه على الأرض. واختفت الطلقة ككف مارييل.

وكانت الدهشة هي الغالبة على انفعالاتها العديدة وهي ترتقب الدم يسيل من جرحها وهمت قائلة لروم وعيناه المشدوتان تفران على وجهها الحزين:

«أصبحت بالرصاص يا روم».

وفي خلال الساعة التالية أفادت مراراً على أحاسيس مختلفة تركتها في حالة استرخاء تامة. فمن خلال ضباب إغرائها شعرت بذراعين تضمانها في حنان كبير وتحملانها بسرعة عبر الأرض الوعرة، وبعد ذلك سمعت أصواتاً كثيرة تتكلم باهتمام، وشعرت بلمسة سحرية تمس شفتيها قبل أن تسلمها الذراعان اللتان كانتا تحملانها إلى يدي شخص غريب. وكانت تسمع صغيراً مستمراً في أذنيها مصحوباً بعجلات تدور بسرعة وهي تنقلها إلى أماكن مجهولة. وقبل أن يطبق عليها الظلام تماماً، رأت أشخاصاً يزي أبيض وشمع رائحة المخدر وسمعت صريراً يقول لها صاحبه ليظمتها:

«أعدائي يا عزيزتي، فلم يعد هناك ما يخيفك لقد وصلت إلى النساء».

كانت صوفي موجودة لتحيي مازريل، عندما فتحت عينيها في غرفة صغيرة فيها سرير واحد، ومقعد، وصوفان قصير فوقه مزهريّة مليئة بورود ناعم وقرنفل نفاذ الرائحة. ولتنت الأنوار الزاهية نظرها. ولصوفان فتحت بعدم التفكير، بل سعدت بشاعرها الجديدة التي تحول في خاطرها مثل الاطشان والحريّة.

«كيف حالك يا مازريل؟»

وبدء صوت خالتها شعورها بالراحة والرضى، ودفع بالعبروس إلى جيبتها وملامحها، وكان المفروض أن تسعد لرؤيتها. لماذا إذا ارتجفت قلبها فجأة وكأنه يذكرها بشيء لا تتراح إليه؟ ولماذا تشعر بغريزة الرغبة في إخفاء مشاعرها، كما يستدل ذلك من ردها المضطرب؟

«أنا بخير... أين روم؟ هل هو بخير؟»

وابسّمت خالتها وقالت:

ذهب ليستريح ويصلح من هدامه.

وانحنى الخالة على السرير لتصلح الوسائد، وأعطت ذلك إهتماماً كبيراً كما لو كانت تبحث عن شيء يشغل يديها المرتعشتين.

«ظلم بجوار فراشك طيلة الليل وكان قلقاً عليك. كنا نعلم الاثنين نلقين عليك.»

وأغمضت مازريل عينيها لكنها قاومت رغبتها في التعاس

تسأل:

«هل سيعود؟»

وطأأثتها صوفي وهي تريت على يديها المسكتين بالغطاء.

«طبعاً يا حبيبي، أفنعناه بأخذ قسط من الراحة بعد تأكيد الطبيب له بأن منظره الذي يشبه منظر الشريد الملتحي ذي العينين الحمراءوين لن يساعد على شفاء أي مريض. لذا عودي إلى نومك وأضمن لك أنك ستجدينه بجوار سريرك عند استيقاظك.»

كانت مازريل تعرف أن خالتها كريمة لكنها كانت دائماً كذلك، ولكن عندما انتشع ضباب الحذيان الذي يربك تفكيرها، استطاعت أن تطمن بال صوفي بأنها تفهم الموقف بينها وبين روم، وتطمعها بأنها لا تعترض أن تسبب لها إحراجاً. ولكنها ودت لو رأت مرة أخرى لتطمئن عليه. وبعد ذلك غلبها التعاس قبل أن تصل إلى قرار محدد. وتركت صوفي التي انحنت على سريرها تفكر في سبب الابتسامة المرتسمة على شفهي ابنة أختها.

أفاقت مازريل بعد ذلك بمدة ووجدت الغرفة يغلفها الظلام وكان بها مصباح يرسل نوره على غطاء السرير وعندما تحركت ظهر لها شيخ شخص كان يجلس بجوار الحائط واقترب منها وانحنى فوقها بقلبي ظاهر، ولما عرفته اهتسمت وقالت:

«روم...»

ورأت فيه تغييراً جوهراً لكنها أبعدته عن ذهنها، ولم تفكر إلا في وجوده بجانبها بوجهه الشاحب وجاذبيته الطاغية شأنه في ذلك شأن كل سكان الحياة الطبيعية المفتوحة.

واشتم لها معبراً عن ارتياحه وكان عبثاً ضحكاً قد أنقذ عن كاهله. وأمسك بيدها بحنان وجمال ينظره على عينيها المتدهشتين وقمها المضطرب.

ارتحت مارييل نظرها وبدت وكأنها طفلة معاقبة مغلوطة على أمرها، قال روم الذي نفسه في الليلة السابقة لكن بصورة أقل جدية، قلنا بطريقة تتل على التبرم الذي حاول إخفاؤه. لكن مارييل شعرت به بالرغم من محاولته. فقد حضر سرعاً ليراعها وهو في طريقه إلى مقابلة بعض أصدقائه. الأمر الذي كان يتكرر كثيراً كلما تحسنت صحتها. وكان في زيه الحضري يظهر أناقة باردة، مما أبرز بوضوح الحاجز الذي أقامه خجلها. وعندما ردت على تحيته بهمس مضطرب قطب جبينه وظهر الفرق كبيراً بين ملامحه السراء ولون قميصه الفاتح.

وعندما سحب كرسياً ليجلس بجوار سريرها سألتها:
«هل من شيء يقلقلك؟»

شعرت بعينه تتركزان على نفسها الذي أخذ يرتجف. ثم أخذ يداعبها بقوله:

«تعاني العصفورة الصغيرة من نوبة غضب لأن جناحيها قد قصا مؤقتاً. ألين كذلك؟ يجب ألا تشعرى بالغيرة لأن أصدقاءنا يحتفلون بي وبصوفي. انتظري حتى نصل إلى فينا. وهي مدينة خلقت من الحب. حب الموسيقى. وحب الفن وحب المحين. هناك سأعرضك كل ما تتوقن إليه».

وانتظر متوقفاً أن تعود لطبيعتها النائرة. إلا أن قلبها الحزين رفض فكرة الحوار اللغوي. وانحصرت على الرفود المقتضبة الباردة. فقالت وعيناها مبلتان:

«إنني لست حائلة قط»

وبخفة حركته المعهودة هب واقفاً.

«إذاً ما هو السبب في تصرفك مثل الطفلة الغاضبة؟»

قال ذلك وقد أمسك بذقتها بين أصابعه القوية اضطرت أن تقابل نظراته الثاقبة بعينيتها وقالت وهي خائفة من نبض أصابعه على جلدها: «أشعر بالحنين إلى الوطن. أريد العودة إلى انكلترا حيث الحياة المنطقية وراحة البال».

وانقسم الاتصال بينها عندما ترك ذقتها تاركاً هوة من الصمت لا يمكن ملؤها.

«هل تكرهيننا جميعاً هذه الدرجة؟»

ولفترة طويلة ساد الصمت بينها. ثم بدون أي تعليق آخر، خرج من الغرفة تاركاً إياها لتدخن وجهها في الوسادة. وتبكي وهي تواجه وحدها آلام نضجها الجديد.

وقلقت صوفي من الصمت الطويل ورأت أن العلاج هو أن تتظاهر بالوجه البشوش والتصرف المرح وهي تزف إلى مارييل ما اعتبرته خيراً ساراً:

«إن الطبيب يوافق على سفرك إلى فينا غداً».

وراقبت صوفي بقلق رد فعل مارييل. وعندما لم تسمع تعليقاً على عبارتها عضت على شفتيها وأعدت الكرة قائلة:

«وعندنا روم بإعطائنا شقته في فينا. فكيف تعلمين كان المقروض أن نقيم مع بعض أصدقائنا، ولكن بما أن منزلهم صغير صمم روم على أن تستخدم شقته حتى نكون مستريحين. إنها لا بد مستعجلك. فهي مريحة وكاملة وقرية من المحلات التجارية».

فرحت صوفي عندما لاحظت في عيني مارييل حيوية تتم عن حب استطلاع يقرب من عدم تصديق ما سمعته وقالت:

هل لروم شقة في فينا؟

«نعم، اتخذ فينا مدينة مختلطة له. فينا هي التي احتضنته، يقول إنها المكان الوحيد الذي يرتاح إليه إذا قرر أن تكون له جنود ويستقر وإذا ترك الأمر لأهل فينا فلا بد أنه يبقى في مدينتهم إلى الأبد ولكنهم ينتظرون حفلاته النادرة كما لو كان بطلاً مغواراً. فمن من الناس لا يفرح بأن يضع يده على نبض جمهور ذواقه مثل أهل فينا؟ وهزت مارييل رأسها وهي لا تستطيع أن توفق بين الصور التي تعرفها عن روم وتلك التي رسمتها خالتها له. فعندما كانا في القبيلة تساءلت لماذا لم يتحف عشرته بحفلاته الغنائية، لكنهم أفهسوها بأنه كفائد لهم لا يستطيع أن يكون تحت تصرف نزواتهم. فالظروف وحدها هي التي اضطرت له لأن يقوم بهذا الدور أمام الأجانب. أما هنا فهو ملك نفسه. وأخيراً قالت صوفي وكأنها تذكر شيئاً غامراً:

«استدعى روم قبيلة إلى فينا وطلب مني أن اعترف لك بلبه عنه لعدم مروءة عليك. وأكد لي أنه سيعيد الشقة لتكون جارة للاستعمارة» عندما نلحق به غداً.

وخرجت الكلمات من بين شفتي مارييل المطبقين قائلة:
«أريد العودة إلى وطني».

أكدت مارييل أنها لن تجد في فينا غير النعاسة، وهي تعاسة وجودها مع روم الجديد، روم الغريب ذي القدرة على الاندماج في أي مجتمع يجد نفسه فيه. أما روم القديم الذي عرفته وأحبته فقد تغير. بيتا تعاني هي من وعوده التي أكدها لها حين قال: سأعرضك من كل ما تفتقده. بدون أن يدري أن كلامه هذا يدنس الجرح الذي حدثه لها باعترافه بحب صوفي. فلا شيء في الدنيا يعرض فقدانها

إياها، إنه الرجل الذي اعتبرته في نوبات هذيانها وأعلامها، زوجاً لها!

«ما زلت ضعيفة يا عزيزتي، نحتاجين لمرضى جيد ونقاعة طويلة قبل أن تفكر في السفر إلى انكلترا. هذا إلى جانب ما يترتب على ذلك من وحدتك هناك. في وسعي أن أصعبك إلى هناك لولا أن لي عملاً في فينا لا يمكن تأجيله. أرجوك يا مارييل لا تتخذي قرارات حفاة».

ولم تغب عن مارييل الرغبة التي بدت في صوت خالتها ولا نعومة نظراتها الخاملة وهي تتكلم عن العمل الذي ينتظرها في فينا. ولا شك أن روم كان المقصود بذلك. أنه هو العمل الذي تحدث عنه. وضغطت على نفسها لتواجه الواقع. وهكذا وجدت القوة لتقرر أن تقضي مع المهزلة إلى آخر مداهم المرير.

وحالفاً على سمعتها وكبرياتها رأت أنها لا تستطيع أن تهرب إلى انكلترا بشاعر جريحة. وعندما شعرت أن صوفي تكاد تكشف سرها بلغت ريقها بصعوبة وقالت:

«أنت على حساب كعادتك دائماً يا خالة صوفي، يجب أن أبقي هنا لفترة على الأقل، فأرجو أن يكون حسابك في البنك بخير، فإني بحاجة إلى ملابس داخلية وخارجية. وبما أنني مظلة فعليك أن تعاونيني إذا أردت ألا تفجلي من ظهورك في فينا مع ابنة أخت معدمة».

وردت عليها ضاحكة وهي تقول:

«ليست هذه المشكلة، فكل ما لدي هو ملكك يا عزيزتي، فإني أتوق إلى مرافقتك في رحلة الشتاء التي ستقومين بها».

مرأسيوغان ليل أن تقرر صوفي أن صحة ابنة أختها قد تحسنت بالقدر الذي يسمح لها بالخروج لشراء لوازمها. وفي تلك الأثناء كانتا

قد استقرنا في الثقة التي أعدها روم لها، وفيها توثقت علاقات الصداقة بينها. فلي أثناء النهار اعتادنا الخروج لرياضة المشي على الأقدام في المتنزه القريب. وفي المساء كانتا تنجاذبان أطراف الحديث وتضحكان، أو نسمعان الموسيقى في هدوء وألفة. وعلى مر الأيام فهمت كل منهما الأخرى تماماً. وحاولت مارييل أن تعذر على إفسادها خطط التنظيم التي وضعها خالتها. لكن الحالة لم تحب أن تلوم مارييل نفسها على ذلك فقالت وهي تبعد هذا الموضوع عن تفكيرها:

«ربما كان الأمر لا مفر منه، فلا يستطيع الإنسان أن يحيا إلى الأبد في حالة عدم المخاض قرار. ولم يكن لي حيلة في ذلك.»

وأصرت مارييل على الوصول إلى المزيد من الايضاح. لكن صوفي لم تشجع على أن تستخرجها مارييل في الحديث. لباهتمام هادئة قالت:

«لعلك أسديت لي خدمة كبيرة. ولكن الوقت وحده هو الذي سيثبت رأيي. لذا لن أقول أكثر من ذلك.»

ولم يريا روم كثيراً سواء أكان ذلك عمداً من جانب أو بسبب كثرة أعماله. ولم تعرف مارييل الحقيقة. وكان في غيابها راحة لمارييل التي لم تتحمل وجودها في نفس الغرفة التي هو فيها مع صوفي وهما يتسنان لبعضهما. وكان بينهما أسراراً. كما كان حديثهما تتخلله كلمات التدليل التي تدل على مشاعر مكبوتة حرصاً على التقاليد. وكانت مقابلاتها صريحة بالنسبة لها ومؤلة خاصة وأن روم كان يحب أن يدفع حرة الحجل إلى وجنتها عندما يحاول أن يكون لطيفاً معها ويوليها هي الأخرى جزءاً من اهتمامه.

وكانت أعصابها متوترة إلى أقصى حد عندما وجه إليها كلاماً أشعرها بأنه يعتبرها كالطفلة الصغيرة. وكانت صوفي قد استأذنت لتدخل إلى المطبخ لاعداد القهوة وبذ سؤاله الذي ساد بينهما. هوالآن وقد تحست صحتك يا عزيزتي، هل تشعرين بالرغبة في الخروج للعب قليلاً؟»

وشعرت كأنه يقارنها بخالتها ذات المظهر الشاب الذي يثير قوامها وحركاتها الرشيقه تعليقات الناس. فجانباها تشعر بضائتها وحررها وعدم نظجها. أو بعبارة أخرى تشعر أنها لا تستحق إلا الزناء. لذا رفعت رأسها معبرة عن غضبها وقالت:

«إنني لست طفلة.»

فرجع حاجبيه من الدهشة. لكنه تمهل حتى انضى سكاراً ليدخنه ثم قال ببرود:

«لم أعتبرك طفلة حتى الآن.»

وتزايد غضبها ولم تستطع السيطرة عليه. وحيث وافقه للهرب من الغرفة. لكنها لم تفعل رغبة منها في إبلامه. وكان ينظر إليها عندما استدارت على عقبها وقالت:

«إنني أكرهك فأنت أكثر الرجال الذين صادفتهم عجرفة. ورأى أن خالتي أفضل منك وأنت لا تستحقها.»

بالرغم من جودة المحلات التجارية في فيينا، إلا أن صوفي كانت تعرف حيطة متقاعدة تحب أن تمارس مهنتها بتصميم الملابس وحياتها تعدد من الزبائن. وبما أن كل الأبواب كانت مفتوحة أمام صوفي فلم يكن من الصعب عليها أن تحدد موعداً مع كريستينا التي يقع محلها في شارع قريب من شقتها. وباطبع كانت مارييل

تقوم بشراء معظّم لوازمها الداخلية من المحال القريبة، لكن حاسها كان كبيراً عندما صحبت خالتها إلى منزل السيدة العجوز التي اعتادت أن تفضي قوام التي ستحيك لها عندما تصافحها. وقالت كريستا بجديّة:

«لا أستطيع مقاومة تحدي كل منكها للأخرى، فإحداكما الساذجة والأخرى المتحلّقة».

وابشمت صوفي وقالت:

«جسناً، طالما أن حاسك يقيدنا كما تعرفين تحضر حفل الأوبرا أكثر نساء العالم أنالة ولدي سبب وجيه أريد من أجله أن تبدو على أحسن وجه، أستطيعين إعداد ملابس لنا».

فضحكت الحياطة وقالت:

«هكل سرور...»

ثم دفت الجرس لتستدعي مساعدها وقالت لها:

«ارشدني السيتين إلى الغرفة التي نحتفظ فيها بالأفمشة، ثم سأحضر بعد ذلك لأرى اختيارها».

وأخذتها الفتاة إلى الغرفة. حيث كانت هناك امتار من القماش، معلقة على مشاجب لتظهر جمالها ولتعطي الزبائن الفرصة لنفسها والاعجاب بها. ولما كانت مارييل متضايقه بسبب إرغامها على شراء ثوب لمناسية قررت ألا تحضرها، لذا تراجعت عندما عرضت عليها خالتها قطعة من الحرير الخام.

«ألا ترين أن هذا القماش رائع يا مارييل؟ إننا مرغشان، حسب التقاليد، على ارتداء اللون الأبيض لكن لا تقلقي، فاللون يناسب لون بشرتك، أما أنا فشعري الفاتح ولوني الشاحب فسأبدو فيه كالشبح

الكالح».

وحلّلت مارييل أن تغير الموضوع فقالت:

«هل تتضايقين إذا...»

«إذا قررت عدم الذهاب إلى الحفل؟ نعم بلا شك سأتضايق... أولاً أرفض الاستماع لأي أعذار تقدمينها، فقد تفت سنوات طويلة لحفل هذه الفرصة، وستتمدين ليكني بلا شك إذا رفضت الحضور، كما أن روم هو الذي سيأتي لنا بالذاكرة ليس من التوق تركها له، خاصة وأنها مطلوبة جداً».

وأخيراً اعترفت بهزيمتها فقد كانت خالتها سيدة صلبة الرأي، ومع ذلك كانت في تلك المناسبة بالذات أكثر إلحاحاً عن عاداتها في تفيد رغبته.

أخذت مارييل تحول في الشقة وهي تتعجب من عدم وجود دليل فيها عن عمل روم، وشعرت أن الغرف تدب، كما تدب هي، غياب شخصيته القوية منها. وأسكت بإحدى التحف القليلة الموجودة بالشقة، وأخذت تأملها وهي تنتظر خالتها حتى تخرج من غرفتها، حيث كانت ترتدي ملابسها استعداداً لحضور الحفل. أما هي فأنتهت من زينتها وشعرت من صورتها في المرآة أنها أجمل مما بدت من قبل. كان ثوبها من الحرير الذي يمس بطياته لحناً حزيناً حول كاحليها عندما تحطى. أما نصفه العلوي، فترك ذراعيها عاريتين والتفت حول كتفيها يغطي أثر الجرح الذي سببه الرصاصة، لكنها كانت تعاني من جروح أعققت منه، جروح قلبها المرقى من كثرة التشبيل والمقاع. وكان شعر مارييل مصففاً بطريقة جميلة ومنبجاً يشابك من اللؤلؤ مثل لون بشرتها. لكن عينيها كان ينقصها البريق.

وضعت التحفة من يدها ونظت جيئها. وكان هناك موضوع تريد مناقشته مع خالتها قبل وصول روم. فبدت متضايقاً من اتصال الملابس الذي عثرت عليه ملقى بجوار سلة المهملات. وعندما قرأت ما فيه هالما الرقم المذكور. أما ما ألقها أكثر تلك العبارة المكتوبة على الاتصال وتفيد أن المبلغ قد سدد بمعرفة روم. كانت خالتها عند الكواليس حين عثرت على الاتصال وعند عودتها دخلت إلى غرفتها لتستعد للحفل ولم تسع لها الفرصة لمناقشتها.

سمعت مارييل صوت الباب يفتح، فالتفتت وهي متلعنة

بأسئلتها إلا أن الكلمات تعثرت على شفيتها بسبب إعجابها بخالتها وضعت كريستينا يدها على الصفات التي تفتقر إليها صوفي وبحثت اهتمامها إلى أناة ثوب مارييل. عكست القاعدة في ثوب صوفي وجعلتها تبدو مثالفة. كان مصنوعاً من الدانتيل الأبيض وله أكمام طويلة مخيطة على ذراعيها وخصر نحيل يعلون تورة متسعة أما الياقة فكانت توحى بالبراعة لارتفاعها نحو تساهتها الجمادة مثل يافة الراهبات. وشعرها خالياً من المشابك ومصفوفاً كالحرير وكانت السعادة تشع من عينيها مثل الشقطة التي تحضر أول حفلاتها، أو كالشابة التي تستعد لأول موعد غرام أو كامرأة في قمة الحب. وسألت مارييل:

«ما رأيك في؟»

«رائعة»

ودق الجرس فضحكت صوفي وأجهت إلى الباب واثقة أن القادم روم. لكن مارييل قاطعتها:

«انتظري».

ولم يكن هناك وقت للنقاش طويل إلا أنها كانت تتوق لمعرفة الحقيقة، فقالت:

«عثرت على هذا... وعليه اسم روم. ولا أفهم شيئاً»

وبالكاد نظرت صوفي إلى الاتصال. ولم ترد أن تزجل السعادة المرتقة فقالت:

«كنت أعتزم أن أخبرك بأمر الاتصال لكنني نسيت. صمم روم على الدفع، لكنني لم أفهم ما يعنيه بلفظ الدفعة. أي بعض العملات الذهبية الخاصة بك والتي يحتفظ بها عنده بأسئلك».

وبحركة سريعة فتحت الباب وأدخلت روم. وفي لحظة عليه
نسيت روح العداء التي قابلته بها مارييل عندما التفت نظراتها.
وانتهت إلى أن كل ملابسها قد سدت بالثقود التي كانت ثماً لها.
ساعدها روم في ركوب السيارة ووصف للسائق المطعم الذي
سيبتعون فيه. وعندما تحركت السيارة أخذ يتلصصها في قهقهة، فنظر
إلى وجه مارييل الثائر، ثم إلى وجه صوفي السعيد وأتملها
المرتعدة وهي تحاول تثبيت الوردية التي قدمها لها روم.
«دعيني أساعدك».

وثبت الوردية بحكة المجرب الخبير، ثم التفت إلى مارييل بنظرة
تسؤل، لكنها كانت قد ثبتت زهورها بنفسها، وهي زهور اليرتقال التي
تذكرها بحفلات العرس. رفضت استعدادها لمساعدتها والتفت نظراتها
إلا أن العينين الرماديتين انخفضتا أمام نظرة الحيرة التي في عينيه،
وبدا الضيق في صوته عندما تجاهلها وأخذ يتحدث مع صوفي:
«جاء اليوم يا عزيزتي الذي طالما انتظرت، فلا داعي لسؤالك إذا كنت
سعيدة».

ضحكت صوفي ضحكة رنانة وقالت:

«نعم أنا سعيدة، فهناك سحر في الجو الليلة، ألا تشعر به؟ فستأثني
النجوم يريق ساطع، وستطوف الموسيقى بأجحة الملائكة، وستفرح
قينا كما لم تفعل من قبل».

ومدت يدها لتغطي يد روم وقالت:

«أرجو لك السعادة أيضاً يا عزيزي روم».

ونظرت مارييل من النافذة دون أن ترى شيئاً. وكان باعة الورد
يعرضون سلعتهم الجميلة والناس يصطفون خارج المسارح انتظاراً

للدخول. وسادت نفسها كيف ستقضي السهرة التي تحمل الكثير في
طياتها بالنسبة للآتين الذين معها. وكان اتفاقاً قد تم بينها على
المقابلة في قينا في ليلة الحفل. لقد انتهت فراقها منذ أسابيع.
ولكنها فضلاً لأسباب عاطفية أن يتقابلا بهذه الصورة الخيالية حتى
تقل تلك الليلة راسخة في ذاكرتها. واغتاضت مارييل وضغطت
على عواطفها فبدت وكأن الأمر لا يهمها.

ولم تذكر شيئاً من الحديث الذي دار في المطعم. مع أنها اشتركت
فيه إلا أن ردودها الآتية قد أثارته روم حتى سألها:

«هل حديثنا يشتر ملك يا مارييل؟ أم أنك على وشك الدخول في
إحدى نوباتك التي اعتدنا عليها».

«هست لقوله حتى أن الملعنة سقطت من يدها. وكادت ترد عليه
عندما ظهر شخص بجانبها يلبس نفس ملابس السهرة التي يرتديها
روم. حلة سوداء ورباط عنق أبيض، وانحنى والتقط الملعنة قائلاً:
«واسمحي لي يا عزيزتي»

ثم استقام ببطء وأبتسم لصوفي التي همت، وقد امتنع لونها:
«ستيفان! أطفأ أنت يا عزيزي»

وهب روم واقفاً وأبتسم وألح على الرجل بالجلوس معهم، فجلس
لكنه لم يتكلم مكتفياً بسعادة النظر إلى الجمال الذي بجواره. وسأله
روم:

«هل تناولت طعامك؟»

فقال ونظراته عالقة بصوفي:

«كلا... حجرت مائدة وطلبت طعاماً لشخصين».

وجالت الدموع في عيني صوفي؟ عندما مد يده وأمسك بيدها ثم

«هل جئت إلى هنا بعد كل هذه السنين؟»

وأوما برأسه وقال:

«جئت إلى فينا كل عام، لمدة عشرين سنة، لأتظفر فتاة في هذا المطعم، وعلى نفس المائدة، لكنها لم تحضر. إن الخدم ينظرون إليّ ويظنونني مجنوناً خائفة تخيلاتهم حتى اعتقد أنه سيقابل المرأة التي يحبها في يوم من الأيام. فهنا اصطحيتني إلى مائدتها لأثيت لهم خطأهم.»

وافلته والانتقال ينجفها، كما كانت شاردة الفكر بحيث لم تحببها بكلمة قبل أن تتركها وتختفي من أمامها:

زادت دهشة مارييل عندما ابتسم روم وجلس على المقعد الذي تركته صوفي. وقالت له متسائلة:

«إنتي لا أفهم شيئاً. ألا يملك انصرافها مع غريب؟»

فرد عليها قائلاً:

«هل ستيفان غريب؟ لقد كان الإنسان حبيبي عندما كانت صوفي فتاة يافعة، وقيل أن يفر ستيفان إلى إنكلترا لينضم إلى سلاح الطيران رجاءاً أن تتزوج، لكنها رفضت أن تترك والدها بمفردها في وارسو. وهكذا افترقا على وعد اتفاقا عليه، وهو أن يلتقا في هذا المطعم في ليلة الأوبرا بعد الحرب. وإذا لم يستطع أحدهما الحضور، يحضر الآخر حتى يتجسعا في الالتقاء. ولكن لم تسر الأمور كما يشتهيان. فعندما انتهت الحرب كانت صوفي تساعد الناس ولم تستطع مغادرة البلاد بالرغم من تيسر سبل الحرب أمامها. وهكذا حضر ستيفان إلى فينا كل عام على أمل رؤيتها.»

وفهمت مارييل رد خالتها عند اعتبارها لافانها مشاريع

المنظمة بقولها:

«ترين أنه ليس لدي أي اختيار...»

فكم يسهل عليها الآن أن تفهم حيرة خالتها إذ كان الاختيار بين سعادتها وسعادة أنصارها. فعندما تذكرت ظلمها لخالتها غمرها الحجل. ثم خرجت من صومعتها بحواشيها متنبهة. وكان العازفون يعزفون لها راقصاً، والمطعم يعج بالناس وكلهم على استعداد للاستمتاع بليلتهم. وداعب النور الخافت ملامح روم وأظهر فيه مرح عينيته. وتساعد دخان السيكار ولها في إلفة تنذر بومود جعلتها ترتعد. كما شعرت أن روم مستمتع بصحبها حين قال لها:

«يجب أن نتم كلامنا خلال العشاء لأن هناك أشياء كثيرة تريدني السؤال عنها، لكني لا أرغب في قضاء السهرة في الحديث.»

أما ماذا يريد بدلاً من الكلام فلم يفسح عنه. ولكن كانت لها فتها على إلقاء أسئلتها كبيرة فقالت لروم:

«قلت إنك تحب صوفي ومع ذلك لا تعترض على أحقية ستيفان فيها، فمن المحتمل أن تتحول مشاعرها إلى غيرك. وكما تعلم فالتناس يفعلون هذا أحياناً.»

اهتزت شفتاه وقال:

«عبرت عن رأيي منذ بضعة أيام وقلت أنني لا أستحق خالك لأنها أحسن مني، وأعترف أنني دهشت لتعليقك وقتئذ ولكن بعد قليل بدأت أفهم أن...»

وتوقف وهو يدرس وجهها، وكأنه يستطيع الوصول إلى أسرارها. ثم تابع كلامه:

«إني أحب صوفي ولكنني لم ولا أعشقها».

وعندما أرخت أهداياها، امتدت يده لتمسك بيدها وقال:

«لا تخفي نفسك عني يا مارييل، أريد أن نتحرر الليلة من كل أثر لسوء التفاهم بيننا. يجب أن يكون كل منا صريحاً ليس كذلك؟»

وأراد جانب منها أن يهرب من نظرتها الجارفة، أما الجانب الآخر فقد كان غارقاً في اهتمامها به، وتحتمت قائلة:

«نعم، يدين كل منا بذلك للآخر».

«حسناً... إذا أخبريني لماذا عندما حضرت لمصاحبتك الليلة قابلتني بنظرة ازدراء؟»

وشعرت بالحرج عندما أرغمتها نظرتها على الاعتراف:

«لأن صوفي أخبرتني عن مصدر النقد التي دفعت ثمناً لشوبينا، وكنت تعرف وأنت تدفع دوطلي، كما تسميها، مدى شعوري بالذلّة».

فاندعش وقال:

«لكن النقد هي ملكك. واحتفظ بها لك. فلماذا تشعرين بالهانة؟ أليس من حق المرأة أن يدفع زوجها ثمن ملابسها؟»

قادت عليه وقد تولاهما الغضب:

«كلانا إذا كان لا يطالب بحقوقه».

ولم يحاول أن يدعي جهله بما تريد قوله:

«لن تغفري لي إذا طالبت بحقوقي، ما حدث تلك الليلة في منزل جان كان تجربة لا أريد تكرارها، تركي لك تلك الليلة كان من أصعب الأمور».

وجللت فيه وهي تخفي أن تصدق ما قاله، فقد صمم أن يكون صادقاً حتى أنها لم تجرؤ على توجيه السؤال الذي كانت تمنى أن

تسأله خوفاً من رده، لكنها كانت تتوق لمعرفة شيء بالذات، هل كانت رغبته فيها تلك الليلة بدافع الحب أم كانت تعطشاً مصدرة غريزة الرجل؟

إلا أن حديثها قطع قبل أن تجمع شجاعتها لالقاء السؤال، وتلاشت لحظة قول الحق، وقتت مارييل لو أبعدت صوفي و ستيفان عندما عادا إليها والسعادة يادية عليهما، ولم يرحب روم بعودتهما أيضاً، لكنه ولف لها احتراماً دون أن يبدو الضيق على ملامحه.

وكانت السعادة تشع من صوفي عندما اقترحت قائلة:

«يجب أن نذهب إلى دار الأوبرا الآن حتى نصل قبل بدء العرض».

نظر روم في ساعته ووافقها على رأيها، وسرعان ما كانتوا في طريقهم إلى دار الأوبرا.

كان السؤال الحائر ما زال حائلاً بينهما مثل السحابة.

وعند وصولهم إلى دار الأوبرا كان المكان يعج بالأضواء والموسيقى والضججكات، وكانت فينا زاهية الألوان تتأرجح بالمشاعر الفياضة، كما كانت المنازل القديمة تعج بالسيارات والمرح الذين ترحب بهم بزوار المدينة. تركت مارييل و صوفي الرجلين في المدخل وذهبتا لتضعا وشاحيهما في غرفة حفظ الملابس. وكان الجو مفعماً بالإشارة والحماس الشديدتين حتى أن الكلمات لم تعد لها ضرورة. وشعرتا بأنهما على حافة حدث كبير ومناسبة لا تحدث إلا مرة في العمر، وودت مارييل لو انضمت للرجلين فوراً، إذ كانت تتوق لصحبتهما. أما صوفي فطلعت أسام المرأة لتتصلح من زينتها. وتلاشت نظرتها بنظرة مارييل في المرأة وهي على وشك وضع أحمر الشفاه على شفاهها وسألتهما:

«هل تأكدت من كل شكوكك يا عزيزتي؟»

فارتعدت مارييل، كانت تشك دائماً في أن صوتي قد استنجدت
أمر حبها لروم، لذا ردت عليها قائلة:

«كلا لم أتأكد منها كلها».

وألحت صوتي قائلة:

«أيمكنني مساعدتك؟»

فردت عليها مارييل وهي تتفانى عينيها:

«لا أظن ذلك».

«جربيني ولا تخشي من الاعتراف بحبك لروم، فهو شخص راسخ،
لكنني أظن سبب مخاوفك من الحياة التي سيحياها إذا أصبحت
زوجته».

فضحكت بدعشة وقالت:

«زوجته لا أتصور أن يعترف روم بمثل هذه الحاجة، فهو رجالة
اعتاد حياة الوحدة. والزوجة لن تضيف شيئاً إليه».

ثم وضعت صوتي أمر الشفاء في مكانه وأغلقت حقيبتها قائلة:
«تفكيرك خاطيء»، ظننتك تعرفين روم، لكنني أراك مخطئة. فروم
اعترف لي منذ سنين بسر لا يعرفه غير القليلين، وقد يكون استنتجته
بعض المقربين من أفراد القبيلة لكنهم غير متأكدين».

واستمرت قائلة وهي تغالب نفسها للكشف عن السر:

«يعتقد أنه ولد وعليه لعنة معينة، وهي أن يكون طريداً وشريداً
ومحكوماً عليه أن يعيش بقية حياته والسوء لحافه والعجلات تحت
قدميه. ألا ترين يا مارييل أنه يتوق إلى بيت يستقر فيه وأسرّة
يعيش بينها؟ وهو شيء لا يتوقع أن يجده في القبيلة! فقد يكون شكله

كالغجر وسحره كسحرهم، لكنه ليس معتاداً غرائزهم. وإنني على ثقة
من أنه مع واحدة مثلك يستطيع أن يد لنفسه جذوراً هنا في فينا
ويعيش كما قدر له الله أن يعيش، أي بين أمثاله من الناس».

فالتفت إليها مارييل ونظرة ألم في عينيها وغالبت دموعها
قائلة:

«هذه مجرد أمانتي تعبرين عنها يا خالة صوتي».

واستطردت تقول:

«إنه كرم منك أن تمنني لي نفس السعادة التي عبرت أنت عنها. لكن
للأسف لا يمكن التحكم في القدر معها حاولت ذلك. فأنا بالنسبة
لروم مصدر مضايقة يريد الخلاص منه. نعم، إنني واثقة من أن
اهتمامه بي قد زاد في المدة الأخيرة، لكنني لم أسمح لنفسي أن أنسى أن
هذا التغيير هو جزء من الاسترضاء الذي يشعر بأنه يدين به لي».

ثم ابتعدت عن خالتها وعندما وصلت إلى الباب استدارت وألقت
إليها بعبارة أخرى مريرة:

«بما أن هذه الليلة تعتبر آخر فرصة لهذا الاسترضاء، فأرجو أن تسمح لي
بأن أضع أية دقيقة فيها...»

كانت دار الأوبرا من الداخل مثل قصور الروايات الخرافية. ومكان الأوركسترا مغطى بألواح خشبية تعطي اتساعاً للشرح. المقصورات وحافة الصفوف العليا مزينة بعقود من زهور القرنفل الحمراء. كما كانت تزيناها الشابات بلباسهن البيضاء، وبصحبهن رجال بلباسهم السوداء. ومن يخطرن كالدمى تحت الثريات البراقة.

وكانت الأوركسترا تنهأ استعداداً للعزف عندما وصلت مارييل إلى جوار روم وأدار رأسه نحوها بطريقة غريبة. ابتسامته التي وجهها إليها دافئة بددت شكوكها. نظر إليها دون أن يتكلم وقد نسي كل الجمال الذي حوله. وتعبيراً عن رضاه بما قرأ في وجهها. لف ذراعه حول خصرها وأخذ يرقص معها.

سعدت مارييل بحضنه الذي كان خليطاً من الحلو والمر. ولم تدع تفكيرها يدور حول البغد بما يحصل من شعور بالوحدة والعذاب. بل قررت أن تنعم بكل دقيقة من الذكريات الحلوة التي تهيئها لها تلك الليلة. فإذا لاحظت في نظرها سحابة من اليأس، فإنه لم يلحظها. إنَّ الغم المرتعد والرجنتين الورديتين قد تكون علامات السعادة أو الألم. وأخذ قلبها يندق مع وقع الموسيقى وبدأ هادئاً، ثم اشتد تدريجياً حتى استسلم عندما اشتد ضغط ساعديه وامتزج هذه القوى برشاقتها الرقيقة وأصبعا واحداً عندما أخذاً يتحركان. ولم تخطئه خطأها مرة واحدة بفضل رقصه المتقن. وبعد عدة رقصات كانت تسلب كنوز القصر على حلبة الرقص. ترك روم خصرها عندما سكنت الموسيقى.

لكنه ظل يداعبها وهو يقود خطواتها نحو مائدة عليها دلو مملوء بالثلج وتتوسطه زجاجة شراب. ولم يكن ستيفان و صوفي موجودين عندما أخذ روم يصب السائل الذهبي في الكؤوس. ولم يسمع أحد غير مارييل النخب الذي قاله:

«في صحة الحب، يا عزيزتي، والوفاء والتفاهم».

والكأس بيده ينتظر ردها. وكأنه يطلب منها منحه الصفات الثلاثة، الحب والوفاء والتفاهم. ولكنه لم يتضايق عندما تمتمت بشيء لم يسمعه تماماً، بل شربت ما في الكأس بقلق جعلها تسعل، مما أقلق روم فأخذ يقترب منها ويقدم لها منديل الكبر للشيع برائحة التبغ وعاء الكولونيا وأخذ الناس يتحركون حولها. لكن مائدتها كانت كقارب وسط بحر مضطرب عندما قرب شفثيه من أذنها وقال:

«دعينا نذهب حيث نكون بملودنا...»

وللهواة الأولى كلات ترفض، لكن تعبير وجهه أشعرها بأنه لن يقبل الرفض، لذا سمحت له وأعصاها مرهقة، أن يصحبها إلى الخارج. وبجوار الأوبرا يوجد منتزه كانت مقاعده مغلقة بظلام الليل. وعندما أخذاً يتجولان في الحديقة خفت صوت الموسيقى حتى صمتت تماماً. وكان صوت خفيف ثوبها هو الوحيد المسموع في سكون الليل. ولما تذكر أنها لا تتحمل جميع أنواع الأجواء قال:

«ليس معك وشاح، دعيني أعطيك سترتي».

لكنها رفضت وقالت:

«كلا... أشكرك، أشعر بالدفء».

أن ليس سترته يعتبر رفع كلفة محفوفاً بالخطر

وشعر بالغضب لرفضها وقال بعدة:

«هل وصلت كراهيتك إلى حد كراهية ملاهي؟ إن سرتني لن تعذبك
وأكفها الحالية لا ضرر منها، لماذا تتصرفين هكذا؟ قضيت أسابيع
أحاول أن أكسر جمودك، لكنك تتباعدن من تقربي وتهربين من
مفاتيحي لك... هل يجري في عروقك دم أم تلج؟»

وكان الأسهل أن تعتمد على الغضب لتستخدمه ضد جاذبيته
الجارفة، ورغم أنها كانت مستعدة للاستمتاع بكل دقيقة من هذه
الليلة، إلا أن عواطفها كانت تقاوم سيطرته. وشعرت أن القسوة هي
الطريقة الوحيدة التي تثبت بها سيادتها عليه وعلى نفسها، فقالت
بيرو:

«اتضح أن الصداقة بيننا أصبحت مستحيلة. لذلك إنساني وارتكبي
وشأني، فبعد بضعة أيام سأرحل وستناني سريعاً بمجرد سفري.»
«أنساك»

وبسرعة احتضنها بين ذراعيه بغضب وكأنه يعاقبها، فلم تعد مخالب
الأسد معسولة، كما لم تكن كلماته حانية بل قاسية.
«أتريدين أن أنسي أنك عروسي؟ أنسي الليالي التي قضيتها أنصت إلى
همسك وأنت نائمة، وإلى صوت تنفسك. وأنا أكبح جماح مشاعري
خوفاً من أن تكون رغبتني سيئاً في تعاستي؟»

وأخذ يهرها حتى بدأت تلهث. واستمر في كلامه قائلاً:
«إنني أحبك أيتها المجنونة الثائرة، صورتك محفورة في قلبي، ومع ذلك
تشكلين عن نسياني لك؟»

وترك كتفها ليضم جسدها الرقيق المرتجف بين أحضانه ويقول:
«أنساك! بل اسمحي لي أن أحصل على شيء سأذكره طول حياتي.»
وكان تصرفه تصرف الفجري الجريء الذي انتزع استجابتها من

قرارة نفسها. وإنسابت المشاعر بينها وأرسلت هزات في عروقها تؤكد
الاستجابة لجاذبيته الطاغية. ففي أول الأمر كان غاضباً وندفعاً
برغبته في الانتقام منها، بحيث لم يظن إلى نقطة استجابتها له.
وعندما لم تبد اعتراضاً، اعترته الدهشة، وحين لم يجد أي أثر للمقاومة،
بل ظلت مستسلمة له، فتم بكلمات هامة تتم عن سعادته المشوبة
بالدهشة. وأقبل عليها بعاطفة قوية يشبث بها انتصاره الذي طال
انتظاره له. وكان يشعر بقلبها وقد أخذ يرتجف كالطائر الحبيس. وعندما
استجابت له، شعرت بحرارة تنساب في داخلها وتطمئن حواسها بأنه لن
يجدها أقل منه لطفة عليه. لذا سعدت بحنانه وذراعيه اللين كان في
إمكانها القسوة عليها، لكنها كانتا تترفقان بها. وقال بصوت عميق
هادئ:

«أنت لي لآخر يوم في حياتي...»

وترك أصابعه تتغلغل في شعرها وتنتشر المشايك منه حتى انسأب
كالزئبق بين أصابعه، ولما ارتاح لهذه المداعبة ضحك ودفن وجهه في
خصلات شعرها. فشعرت بالأرض غيل من تحت قدميها والفكر يتوه
منها. وتركزت حواسها في ضمة ذراعيه وعمق صوته وكلها مشاعر
أكدت لها أن الحلم الذي كانت تعتبره مستحيلاً، والرغبة التي لم تجرؤ
على التفكير فيها، أصبحت حقيقة.

وكانت طبيعة بين ذراعيه، وسعيدة، عندما وجداً أخيراً وقتاً للكلام
فقالت بدهشة:

«إنني لا أصدق هذا...»

وكان يقف وراءها يطوق خصرها بذراعيه حين قال وهو يكشف
عن عقيدة عشيقته المتينة:

«إننا لا نستجوب القدر، فبالنسبة إلي أكتفي بوجودك بين ذراعي أيتها الأوزة البرية الصغيرة، لقد صدقت أسطورة الغجر، فمهما فرت من صائدها فإنها تعود إليه».

إن روم هو صائدها الذي استحوذ على قلبها. واستدارت بين ذراعيه لتداعب خديه بكفها. وتأثر عندما اعترفت ببساطة وصديق: «إنني أحبك جداً يا حبيبي، فمنذ لقائنا الأول أردت أن أقاوم هذا الحب، ولكن في ليلة زفافنا تأكدت...».

«هل حدثت حقاً ليلة الزفاف هذه؟» قال ذلك وقد أمسك كل أصبع من أصابعها ولمسه بشفتيه. «عروس متمنعة تعترف بحبها متأخراً، وعريس يصمم ألا يصبح زوجاً وألا يعتمد أن يعادي عروسه».

ثم هس مستطرداً كلامه: «إنني أعدك بشيء يا حبيبتي...» «ما هو؟»

«أعدك أن تكون ليلة زواجنا الثابتة مختلفة تماماً». وكانت ما تزال تشعر بالحجل منه، فلم تستطع النظر إليه، لذا تقادى في مداعبتها وقال:

«سيكون لنا أطفال كثيرون... أولاد سمر يلعبون في الغابات مع أصدقائهم الغجر، كما ستكون لنا بنات جميلات تسحرن قلوب أهل فينيا بحسنهن الانكليزي».

وشعرت بأنه يريد منها أن تسأله سؤالاً خاصاً: «وأيمن ستقيم أسرتنا هذه يا روم؟»

مالت عليه وانتظرت رده. فسواء أقاما في الشرق أو الغرب أو في

عربة عجر أو قصر. فكل ما تمناء هو مكان بهجوار قلبه. وقال حالماً:

«في فينيا، وفي بيت لا يتحرك وأبواب يمكن قفلها، ونوافذ تظل على منظر لا يتغير إلا باختلاف الفصول».

ثم استطرد يقول بتهيدة تبين شوقه الذي لم تره فيه من قبل: «سيضم بيتنا كل ما أعتر به في العالم، وهو أنت يا حبيبتي...» وانحنى عليها يعانقها بحنان، فلاذت به وهي تعرف تماماً ما يريد. وكانت راضية بمبادلته نفس الشعور، فإن ابن الطبيعة هذا لن يرضى أن ينتظر طويلاً، وستكون مستعدة عندما يحتاج إليها لتطمئنه بأنه لن يندم على الثمن الذي دفعه في عروسه.